

سطيف من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الحفصية

مقاربة لمكانتها الحضارية ورصد لوقائعها التاريخية

Setif from the Early Muslim conquests to the Hafsids dynasty
A civilizational approach and mentoring of its historical factsد. العيدي طويل¹جامعة محمد لمين دباغين. سطيف²

touillaidi@yahoo.com

تاريخ الوصول 2020/03/23 القبول 2020/10/21 النشر علي الخط 2021/03/15

Received 23/03/2020 Accepted 21/10/2020 Published online 15/03/2021

ملخص:

أتطرق في هذا المقال إلى مختلف الفترات والتحويلات التي عرفتها منطقة سطيف، قبيل، أثناء وبعد مرحلة الفتح، واعتناق أهلها للدين الإسلامي في عهد الفاتح أبو المهاجر دينار، وبعده القائد عقبة بن نافع، وما أعقب ذلك من أحداث، منذ قيام الإمارة الأغلبية، حيث أصبحت سطيف قاعدة لنشاط الإمارة في بلاد كتامة، ثم احتضانها لدار الهجرة بقدوم الدعوة الإسماعيلية الشيعية، ودورها كقاعدة لنشر المذهب في بلاد المغرب الإسلامي.

كما أعالج الأحداث التي تلت انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، ووضعية قبيلة كتامة تحت سلطة الدولة الزيرية، ثم الحمادية باستقلال حماد بن بلكين عن الزيريين، وتبعيتها للحماديين، ودورها كمركز يرتبط بأهم العواصم، كالقيروان وقلعة بني حماد وبجاية، وأهم الأحداث التي مرت بها بقيام الدولة الموحدية، خاصة المعركة الكبيرة التي وقعت بين قبائل بني هلال والجيش الموحي سنة 548هـ، ووضعية سطيف تحت الولاء للدولة الحفصية.

الكلمات المفتاحية: سطيف، كتامة، إيكجان، بني هلال، قبيلة عامر.

Abstract:

In this article, I refer to the different periods relating to Setif region; before, during and after the expansion stage, also the Islamic religion that is adopted by the population in the era of El-FatehAbou Al-Mouhajir Dinar, and Oqba Ben Nafaa.

As well as I discuss the consequent of the main events since the establishment of the Aghlabids Emirate. In addition Setif has been a base of Emirate activity in the land ok Kutama further more, its role as a base to diffuse the Shiism in the Islamic Maghreb. I also treat all the events which followed the transition of Fatimid Caliphate in Egypt, and the situation of Kutama tribe under the Zirid authority, then the Hammadid through the independence of Hammad Ibn Buluggin from the Zirids. Thus the major events that Setif has experienced since the establishment of Almohad Caliphate, particularly the great fight between Bini Hilal and Almohad army in 584 SH, then the situation of Setif under the loyalty of the Hafsids dynasty.

Key words: Setif, Ketama, Ikdjan, Bini Hilal, Amer tribe.

1- مقدمة :

شكّلت سطيف بحكم موقعها الاستراتيجي منطقة التقاء عبر التاريخ، تربط الشمال بالجنوب والشرق بالغرب، الشيء الذي أهلها لتكون خلال العصر الوسيط من بين المراكز الحضارية الهامة في تاريخ بلاد المغرب الإسلامي، حيث استمر دورها الفعال كمحور رئيسي للتواصل الديني والاجتماعي والاقتصادي والثقافي بين أكبر الحواضر التي عرفتها بلاد المغرب.

الشيء الذي دفعنا لمحاولة تسليط الأضواء على مختلف المراحل والأحداث التي عرفتها المنطقة خلال الفترة الوسيطة، انطلاقا من طرح إشكالية رئيسية تتمحور حول استمرارية ومكانة سطيف المدينة والمجال في خريطة التحولات بمنطقة المغرب الأوسط منذ بداية الفتح الإسلامي إلى غاية سقوط الدولة الحفصية.

من خلال التطرق إلى ماهية التسمية التي عرفت بها، وتحديد الفترة التي وصلت فيها الفتوحات الإسلامية إلى ربوعها، وطبيعة العلاقة بين المنطقة والإمارة الأغلبية، ومدى مساهمة سكان المنطقة من الكتاميين في تمكن الدعوة الشيعية في بلاد المغرب، ووضعيتها بقيام الدولتين الزيرية و الحمادية، وأهمية معركة سطيف بين الجيش الموحي والقبائل الهلالية في حسم الصراع، والسياسة التي اتبعتها السلطة الحفصية لكسب ولاء قبائل المنطقة، وهذا اعتمادا على تفحص ومقارنة ما حملته لنا المصادر التاريخية والجغرافية من نصوص، بغية محاولة إمطة اللثام على هذه الفترة الهامة من تاريخ منطقة سطيف، والتي لم تنل حظها الكافي في الدراسات الحديثة والمعاصرة.

2 - سطيف، أصل التسمية وجذورها التاريخية:

تصنف منطقة سطيف جغرافيا ضمن الإقليم الشمالي الشرقي للجزائر، وبالضبط ضمن منطقة سهول "الهضاب العليا"، المحصورة بين سلسلي الأطلس التلي في الشمال، والأطلس الصحراوي في الجنوب، حيث تأخذ شكل هضبة محاطة من كل جهاتها بمجموعة من الجبال، تسندها من الجهة الشمالية جبال الباور، وتحدها من الجهة الغربية جبال الحضنة، أما جبال البيبان وجبال مجانة فتسندها من الجهة الشمالية الغربية، وتفتح شرقا على منطقتي ميلة وقسنطينة، اللتين لا يفصلهما عنها إلا قمم جبلية بارزة¹.

يعتبر مصطلح "أزديف" أقدم اسم عُرفت به مدينة سطيف، وهو لفظ أمازيغي يُدَلّل به على التربة السوداء، وكانت المنطقة في حدود سنة 225 ق.م تتبع مملكة ماصيصيليا Masaesyles البربرية، التي كان حُكمها يمتد من وادي بومرزوق والرمال شرقا، وحتى نهر الملوية غربا تحت إدارة القائد المحلي سيفاكس Syphax².

وبعد الاحتلال الروماني للمنطقة وتأسيس الإمبراطور نيرفا Nerva للمدينة، ما بين سنتي 97-98م، التي صارت تعرف بمدينة "سيتيفيس Sitifis"، واتخذت اسمًا رسميًا لها هو: Colonia Nervia Ougusra Martialis Vitranorum Sitifium، تحت رعاية الإله Mars، كما عرفت إلى جانب ذلك بتسميات أخرى هي: مستعمرة نيرفانيا، مستعمرة أوغيستان، مستعمرة مارسيليس، مستعمرة فيتيرانوروم، مستعمرة سيتيفانسيوم، وقد حُطيت مدينة "سيتيفيس" خلال هذه المرحلة برتبة المدينة الرومانية³.

1-Armand camborieux, Sétif et sa région, essai de monographie historique géologique et économique , les imprimeries gaballe , 1978. p 19.

2- Maurice Villard, Yves Bassard, les haute plateaux sétifiens, leur histoire des temps immémoriaux a 1962 ,tome1 , Sétif, p 21 .

3- خديجة منصوري، مستوطنة سيتيفيس في الفترة الرومانية، النشأة والنمو الاقتصادي، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 15، 2001، جامعة منتوري، قسنطينة، ص ص 171 172 .

بعد الفتح الإسلامي للمنطقة عُزِّب اسمها، وأصبحت المصادر تذكرها باسم سَطِيف Sétif بكسر حرف السين، وسَطِيق¹ بفتح السين والقاف الساكنة عوض حرف الفاء، أو صَطِيف² بالصاد في بداية الكلمة بدل حرف السين، أو شَطِيف³، بحرف الشين في مكان حرف السين في البداية، أو سَطِيف⁴ Stif بالسين الساكنة في البداية، أو سَطِيف⁵ بفتح أوله، وكسر ثانيه ثم ياء مثناة من تحت وآخره فاء، وقد نعتها ياقوت الحموي بصفة المدينة، وحدّد موقعها في جبال كتامة⁶، بين تاهرت والقيروان من أرض البربر ببلاد المغرب⁷، المغرب⁷، على بعد ستين ميلاً جنوب بجاية⁸، وبينها وبين قسنطينة أربع مراحل⁹، وتبعد عن المسيلة بمرحلتين، وهي على عشر مراحل من حاضرة القيروان¹⁰.

3 - سَطِيف وطلّائع الفتح الإسلامي، من النصرانية إلى الإسلام:

بعد خضوعها المؤقت للاحتلال الوندالي، خضعت سطيف مرة ثانية لسيطرة الروم البيزنطيين، بمقتضى اتفاقية سنة 442 م، ألحقت بموجبها المدينة وأحواؤها إلى حدود وادي بوسلام شمالاً، وإلى شرق الطريق الرابط بين المدينة و زراية Zraia جنوباً، بمجموعة المدن والأراضي النوميديّة¹¹، حيث قام جيش القائد سولومون بعد تمكنه من القضاء على ثورات المور واستعادة الأوراس، خلال الفترة الثانية الممتدة ما بين 539 م - 544 م بتحسينها بسور سنة 540 م، وقلعة كبيرة على مساحة قدرت بـ 1.69 هكتاراً¹²، مما أعطى للجيش البيزنطي قدرة كبيرة للتحكم في الطريق القادمة من الغرب، عند حدود جبال البيبان، ومراقبة جبال القبائل الصغرى وسلسلة جبال البابور، رغم أن الحدود الغربية والجنوبية الغربية للسيطرة البيزنطية تبقى غير معروفة بدقة، إلا أنه يمكن الجزم أن حدود السيطرة البيزنطية، لم تتعدى الأراضي الغربية لمدينة سطيف، التي توقف عندها بالكامل التوسع البيزنطي غرباً، وقد عرفت المدينة خلال هذه الفترة

- 1 - القاضي النعمان، كتاب افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، الطبعة الثانية، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986 ص 145 36. أيضاً: أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب يعقوبي، البلدان، صححه محمد أمين بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 12. أيضاً: ابن حوقل، المسالك والممالك، مطبعة بريل، 1872، ص 95. أيضاً: شمس الدين أبي عبد الله محمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، لندن، 1901، ص 58. أيضاً: أبو عبد الله محمد الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراء، تصحيح هنري بيرس، الجزائر، 1957، ص 98.
- 2 - أبي عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص 76.
- 3 - أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ، المجلد التاسع، مراجعة محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1987، ص 390.
- 4 - الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1983، ص 52.
- 5 - القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 49 111.
- 6- الوزان، المصدر السابق، الجزء الرابع، ص 22.
- 7- شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي الرومي، معجم البلدان، المجلد الثالث، باب السين، دار صادر، بيروت، لبنان، 1977، ص 220.
- 8- الوزان، المصدر السابق، الجزء الرابع، ص 22.
- 9- أبو عبد الله محمد الإدريسي، المصدر السابق، ص 70.
- 10- البكري، المصدر السابق، ص 76 82.

11- يوسف عيش، المرجع السابق، يوسف عيش، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لبلاد المغرب أثناء الاحتلال البيزنطي، أطروحة لنيل دكتوراه دولة في تاريخ وآثار المغرب القديم، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، 2006 2007، ص 332. أيضاً:

Charles Diehl, Histoire De L'Afrique Byzantine, Domination Byzantine, 533- 709, L'académie Des Inscriptions et Bellusletikes, Editeur Ernest Leroux, Paris, 1896, pp, 258.

أيضاً: . 161 - 157 pp, 29. Revue Latomus, Tomme. 29, La Maurétanie Sitifienne a L'époque Byzantine, Yvalle Duval - 12

يوسف عيش، المرجع السابق، ص 333 334

بانتشار الديانة المسيحية على نطاق واسع، وقد تجسّد هذا الانتشار في تشييد ست كنائس بالجهة الشمالية الغربية، ضمن حي خاص بالمسيحيين¹.

وقد أكد الواقدي هذه الرواية في معرض حديثه عن منطقة سطيف قبيل الفتح الإسلامي، حيث كان سكانها يُدينون بالديانة المسيحية، ويخضعون لسلطة حاكم يلقب بـ "الملك"، يعلو رأسه تاج من اللؤلؤ الأبيض²، وقد تسارعت أحداث الفتوحات من حولها، في عهد ولاية أبو المهاجر دينار، الذي تذكر النصوص التاريخية أنه أول من طبق سياسة الاستقرار كامل فصول السنة ببلاد المغرب، وأول من توغل في المغرب الأوسط، والذي آثر الاستقرار على مشارف منطقة سطيف، وبالضبط بمدينة ميلة من سنة 59هـ حتى سنة 61هـ، ويرجع الفضل في سرعة وصول الجيوش الإسلامية إلى منطقة سطيف في نفس هذه الفترة، إلى القائد أبو المهاجر دينار الذي انتهج اتجاها سياسيا جديدا، يقوم على أساس التقرب من السكان المحليين وترغيبهم في الإسلام باللين، وربط أواصر الحلف معهم ضد الروم الدخلاء³.

لكن عملية الفتح ميدانيا تجسّدت بأراضيها بعد سنة 62هـ، بعدما ولى الخليفة يزيد بن معاوية على بلاد إفريقية والمغرب كله، القائد عقبة بن نافع في ولايته الثانية⁴، هذا الأخير سار من الشام، ولما مر على مصر ركب إليه مسلمة بن مخلد، ومضى مسرعا حتى وصل إفريقية، فأوثق أبا المهاجر بالحديد، وأمر بخراب مدينته، وقام بإعادة تعمير القيروان ورد الناس إليها⁵، وقاد حملته الثانية ما بين سنوات (62هـ - 64هـ / 681م - 683م) للفتح ولغزو الروم البيزنطيين بالزاب، وقتلهم على وادي المسيلة، فهزمهم وذهب عز الروم وملكهم من الزاب إلى آخر الدهر⁶.

وقد تحقّق فتح سطيف بعد مقاومة شرسة من ملكها النصراني، الذي أعلمه جواسيسه المقربون بزحف المسلمين على مدينته، فقام بجمع 20 ألفا من خيرة فرسانه، وخرج لمواجهةهم، وأظهر من الشجاعة والبسالة ما أدهش عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن الزبير بن العوام، وبعد سجال طويل واستماتة كبيرة، أعلن عن إسلامه وتبعه قومه، فدخل المسلمون المدينة ومكثوا فيها خمسة عشر يوما، واختطّوا بها مسجدا للصلاة، وعينوا لها قاضيا، وأمروا عليها صاحبها كما ورد في فتوح البلدان المنسوب للواقدي⁷.

ولم يكتمل اعتناق سكانها للدين الإسلامي، إلا في عهد القائد موسى بن نصير، الذي شمل تحركه العسكري قبائل كتامة وهوارة وزناتة وصنهاجة، فأرسل إلى مضارب هوارة وزناتة عياش بن آخيل على رأس جيشه، فرغبت هذه القبائل بعد هزيمتها في إبرام الصلح، فمنحها موسى بن نصير ذلك بعد أن قدّمت رهائن، واستجاب لرغبة كتامة بتعيين قائد منها يدعى طامون، مقابل أخذ رهائن منها لغرض توثيق ولائها للفاطحيين، وقد تمكن بفضل سياسته الجديدة من إتمام فتح المغرب والأندلس سنة 92هـ - 710م⁸.

1 - Charles Diehl , op cit , pp 258 259 .

2 - أبو محمد عبد الله بن عمر بن واقد، فتوح إفريقية، الجزء الأول، مطبعة المنار، تونس، د ت، ص 148.

3- موسى لقبال، المغرب الإسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1981، ص ص 36 37.

4- الفهري، ولد في حياة النبي (ص)، سنة 1 ق.هـ، 621م، فاتح من كبار القادة في صدر الإسلام، شهد فتح مصر، وهو باني مدينة القيروان، وكان ابن خاله عمر بن العاص. (اليقوي، المصدر السابق، ص 186).

5- شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب فنون الأدب، الجزء الرابع والعشرون، تحقيق عبد المجيد ترحيني، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 13.

6- ابن عداري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول، تحقيق ج س كولان، ليفي بروفونسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983، الطبعة الثالثة، ص ص 23 24.

7- الواقدي، المصدر السابق، ص ص 148 149.

8- موسى لقبال، المغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص 87.

ومن المرجح أن الفاتحين الأوائل قد اتخذوا من القلعة المحصنة التي شيدها البيزنطيون مأوى لهم في مرحلة أولى، وبتوالي عمليات الاستقرار توسع السكن خارج القلعة ليشمل المباني المتبقية من الحقبة الرومانية، لتستمر عمليات التوسع شمال القلعة في مرحلة ثانية، وهو ما دلت عليه الحفريات التي أجريت ما بين سنتي 1977م - 1984م، بالجهة الشمالية والشمالية الشرقية للقلعة البيزنطية، وحديقة التسلية الحالية بمدينة سطيف، باكتشاف إحدى عشرة بيتا، تتوزع حول شارع رئيسي في الاتجاه الغربي الشرقي، تطابق بشكل تفصيلي الشكل العمراني والمعماري للمدينة والمسكن ببلاد المغرب الإسلامي، بعضها مكتمل الأجزاء، والبعض الآخر مهدم جزئيا¹.

كما بينت أعمال الحفر، وجود بقايا لسور كان يحصن المدينة، مبني من بقايا الحجارة الرومانية، وخندق غير عميق، ما يزكي ما أوردته النصوص التاريخية باستمرار بناء المدينة وازدهارها على فترات متتالية أثناء الحقبة الإسلامية الطويلة²، بالإضافة إلى اكتشاف بقايا مظاهر لحفظ الحبوب³، رغم أن أعمال الحفر لم تكشف لنا عن بقايا المسجد الذي أختط بالمدينة، بعد حملة عقبة بن نافع الثانية كما سبقت الإشارة إليه.

3 - سطيف، قاعدة الولاة، ونشاط الإمارة الأغلبية في بلاد كتامة:

بعد مرحلة الولاة، وهي الفترة المحددة زمنيا بين تمام الفتح الإسلامي للبلاد، وقيام أول إمارة مستقلة ببلاد المغرب الإسلامي⁴، تبعت سطيف الإمارة الأغلبية، التي شمل حكمها مناطق واسعة، من طرابلس وإفريقية وشرق المغرب الأوسط⁵، والتي أسسها إبراهيم بن الأغلب الأغلب التميمي عامل الزاب⁶، ما بين سنتي 184 - 296 هـ الموافق لـ 800 - 909م، بمباركة من الخليفة العباسي هارون الرشيد، واتخذت من العباسية أو "القصر القديم" المجاورة للقيروان عاصمة لها، لتنتقل العاصمة في عهد سابع أمرائها إلى مدينة رقادة⁷، وكان منتهى سلطتها غربا مدينة إرية، الواقعة على المجرى الأعلى لنهر الشلف⁸.

وقد عرفت هذه الفترة (النصف الثاني من القرن 2 هـ - 8م) احتدام النشاط الخارجي في المنطقة، وكثرة تحركات الحوارج بالخلافة العباسية، مما اضطر هذه الأخيرة إلى تجهيز عدة حملات لتقويض نشاطهم، وقد ضمت جيوش الخلافة عدة قبائل عربية، التي آثرت الاستقرار في المنطقة، أبرزها أسرة بني الأغلب التي حكمت منطقة الزاب، ونظير بلائها الكبير في مجابهة الحوارج، فقد أقطعهم الخليفة العباسي هارون الرشيد إفريقية ولاية إفريقية سنة 184 هـ - 800 م، مع بقائهم مرتبطين بمركز الخلافة العباسية.

1 -Elizabeth Fentress, Mohamedi Anissa, et Autres, Fouilles de Sétif 1977- 1984, 5eme Supplément D'archéologie Algérienne, Agence National D'archéologie et de Protection des Sites et Monuments Historiques, 1991, pp 15 17 18.

2 - Février Paul Albert. Origines de L habitat Urbain en Mauritanie Césarienne dans J. S. 1967. pp 107- 123.

3 -Elizabeth Fentress, et Autres, op cit, pp15 17 18.

4- لا ينتهي ببلاد المغرب عصر الولاة في تاريخ واحد بالنسبة للأقطار المختلفة، فقد انتهى عصر الولاة في المغرب الأوسط بقيام الدولة الرستمية، سنة 164 هـ - 781م، وفي المغرب الأقصى بقيام الدولة الإدريسية سنة 172 هـ - 788م، وفي المغرب الأدنى بقيام الدولة الأغلبية سنة 184 هـ - 800 م. (حسن مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، الطبعة الرابعة، 2000، ص 65).

5- حسن مؤنس، المرجع السابق، ص 95.

6- الزاب: بلد واسع ويضم عدة مدن من بينها باغاية، أربة، مقرة، تيجس، ميلة، جيغل، قلعة حطاب، اسكيدة، بلزمة، نقاوس، طينة، باديس، تهودة، بنطوس، طولقة، بسكرة... ويضع اليعقوبي منطقة سطيف ضمن هذا الإقليم. (اليعقوبي، المصدر السابق، ص 190).

7- موسى لقبال، المرجع السابق، ص 1.

8 - الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقيا والمغرب، تقدم محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1994، ص 16.

كانت سطيف في هذه الفترة تمثل إحدى أهم حواضر قبيلة كتامة¹، ومن المناطق التي دخلت ضمن التبعية والولاء للإمارة الأغلبية²، التي عينت كحاكم عليها علي بن حفص بن عسلوكة، وهو من عرب بني أسد بن خزيمه، الذين استقروا بها، ويعرفون "ببني عسلوكة"³، عسلوكة³، وكان دوره يتمثل في مراقبة قبيلة كتامة⁴، قبل أن تتبع فيما بعد عامل ميله، وشكلت بذلك إلى غاية القرن العاشر الميلادي الميلادي حصناً إسلامياً، تابعاً للإمارة الأغلبية الموالية للخلافة العباسية، كما استخدمت كقاعدة للعمليات ونشاط الحكم الأغلي في بلاد كتامة⁵.

4 - منطقة سطيف، دار هجرة للدعوة الشيعية الإسماعيلية:

مع بداية الدعوة الشيعية⁶ بمنطقة كتامة، انتقل مركز الثقل الدعوي الإسماعيلي⁷ إلى جهة الشمال الشرقي لمنطقة سطيف، وبالضبط إلى إيكجان⁸ التي اختارها التنظيم الدعوي لتكون قاعدة لنشر المذهب في بلاد المغرب الإسلامي، وكذلك قاعدته العسكرية فيما بعد لإقامة الخلافة الفاطمية في عهدها الأول⁹.

1- تنتسب إلى كتم بن برنس بن بر، وتمتد أراضيها من جبال الأوراس جنوباً حتى البحر شمالاً عند بجاية وبونة، سميت باسمها نسبة إلى جد أعلى لسائر فروعها، ربما كان اسمه "كتام"، أو "كتم"، والافتراضان معا مطروحان عند النسابة المحليين، وكتام أو اكتم هو ابن برنس بن مازينغ بن كنعان بن حام، وهناك طرح آخر لسبب تسمية كتامة، في نظر دعاة الشيعة الإسماعيلية في المنطقة هو الكتمان، وآخر اعتبار في تفسير اسم كتامة له صلة بين كلمة كتامة العربية من جهة، وكلمتي UCUTAMII - UCUTUMANI، اللاتينيتين من جهة أخرى، وقد وردتا في النقوش اللاتينية البيزنطية، للدلالة على قبائل جنوب جبال البابور، وهي نفس مضارب قبيلة كتامة. (موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس هجري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979، ص ص 92 93 99).

2- موسى لقبال، نفس المرجع، ص 151.

3- اليعقوبي، المصدر السابق، ص 190. أيضاً: موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 151.

4- محمد طالي، الدولة الأغلبية التاريخ السياسي، 148هـ - 296هـ، دار الغرب الإسلامي، 1995، بيروت، ص 733.

5- عمر كبور، خلف الله شادية، سطيف تاريخ و حضارة، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص ص 43 44.

6- الشيعة: هم الذين شيعوا علي بن أبي طالب، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً أو وصية إما جلياً أو خفياً، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبطلب منهم، وقالوا: إن الإمام ركن من الدين لا يجوز للرسول عليهم الصلاة والسلام إغفاله وإهماله. (محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر الشهرستاني، الملل والنحل، ترجمة محمد السيد كيلاي، الجزء الأول، الطبعة الثانية، دار المعرفة، لبنان، 1995، ص 146. أيضاً: سليمان عبد الله السلوسي، أصول الإسماعيلية، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار الفضيلة، الرياض، السعودية، 2001، ص 41).

7- هي فرع من الإمامية، تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. (تقي الدين المقرئ، اعطاء الحنفيا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، الجزء الأول، الطبعة الثانية، القاهرة، 1996، ص 6). ثم قالوا بانتقال الإمامة من إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم، وبعده ابنه جعفر الصادق، وبعده ابنه محمد الحبيب، وبعده ابنه عبد الله المهدي الذي ظهرت دعوته على يد أبو عبد الله الداعي في كتامة، تسمى كذلك بالباطنية، والملحدة. (الشهرستاني، المصدر السابق، ص 192. أيضاً: عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخير في أيام العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأعظم، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الجزء الأول، ص 168).

8- هي قلعة على جبل حصين، ضمن أرض بن سكتان، وهم فرع من قبيلة جيملة الكبيرة، يحدد موقعها على مسافة حوالي 2 كلم شرق بني عزيز، يجدها من الجنوب عين الكبيرة، ومن الغرب خراطة، ومن الشمال تاكسنة، ومن الشرق فج مزالة، تحيط بها جبال سيدي ميمون وسيدي صالح ومرزقان، وبابور، وبلتف حولها واد الكلاب، وبقرها يجري واد بوردتم، وتنتشر حولهما سهول التين وسهل المشوار، وابن صالح، وتاشودة، وشعبة الزكار، وبجوارها عين أقارو، وعين الكمن بأسفل القلعة، الموقع حالياً به آثار القلعة، تشتمل على مجموعة خرائب بما آثار لبعض المساكن والقصر. (مرمول محمد الصالح، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص ص 40 41).

9- بوبة مجاني، دراسات إسماعيلية، مطبوعات جامعة منتوري، مكتبة طريق العلم، فسنطينة، 2002 2003، ص 80.

تعود جذور التواصل بين بربر المنطقة والدعوة الشيعية الإسماعيلية إلى أواسط القرن الثاني للهجرة (145هـ)، عندما أوعز دعاة الشيعة الأوائل بالمشرق¹، قبل وصول أبي عبد الله الشيعي² إلى بلاد المغرب رحلين، لمهمة تهيئة الأذهان والنفوس لتقبل تعاليم المذهب ومبادئه، إلى أن يحين زمن نشرها على أسس أحقية آل البيت في الإمامة³.

وأمرهما أن يتجاوزا إفريقية إلى حدود البربر ثم يفترقا، فينزل كل واحد منهما بناحية، فلما وصلا إلى مرماجنة نزل أحدهما بها، وكان يعرف بأبي سفيان بموضع "تالا"، فابتنى مسجدا وتزوج بها، فتشيع لعلمه وعبادته الكثير من أهلها، أما الرجل الثاني فيدعى بالحلواني، والذي تقدم في السير حتى وصل إلى سوجمار "سوق حمار"، بناوحي قسنطينة، فنزل بمكان يعرف "بالناظور"، فابتنى هو الآخر مسجدا وتزوج أيضا، وتشيع كثير من رجال كتامة ونفزة وسماتة على يده، وكان يقول لهم: بعثت أنا وأبا سفيان، فقبل لنا: "أذهبوا إلى المغرب، فإنكما تأتيا أرضا بورا، فأحرثاها ودلاها إلى أن يأتيها صاحب البذر، فيجدها مدللة فيبذر حبه فيها"⁴، فمالت قلوب أهل تلك النواحي إليهما، وحملوا إليهما الأموال والتحف⁵، وبعد فترة توفي أبو سفيان بمرماجنة، وعاش الحلواني بعده مدة طويلة، حتى مات بالناظور من أرض سوجمار، فكان بين دخولهما بلاد المغرب و دخول صاحب البذر 135 سنة⁶.

أما التوطن الحقيقي للدعوة الشيعية الإسماعيلية بمنطقة سطيف، فيمتد إلى سنة 280هـ، عندما ورد إليها أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي داعيا للإمام المهدي، وهو من أهل صنعاء وقيل من أهل الكوفة، الذي سار إلى ابن حوشب بن دادان النجار صاحب العلم والدهاء، حيث لازمه لفترة حتى صار من كبار أصحابه بعدن⁷، فأخذ عنه أسرار الدعوة الشيعية⁸، التي تدعو إلى إمام معصوم يقوم بالحق، فترسل دعاة إلى سائر النواحي فلا ينجح لهم سعي، ثم تفاوضوا على أن يرسلوا داعيا للمغرب، يدعو الناس إلى التدين بحب أهل البيت، وتكاتبوا في ذلك إلى سائر الآفاق، فوقع اختيارهم على أبي عبد الله الصنعاني، الذي اشتهر بينهم بسعة المعرفة والفهم، وفصاحة اللسان، والقدرة على الإقناع⁹.

فلما استقر رأي ابن حوشب على إرسال داعية إلى بلاد المغرب، لإكمال المسار الدعوي للحلواني وأبي سفيان، انتدب لذلك أبا عبد الله، وقال له: "إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان، وقد ماتا وليس لها غيرك، فبادر فإنها موطأة ممهدة لك"، وجمع له مالا يتقوى به على سفره، فسار أبو عبد الله ومعه عبد الله بن أبي الملاحف إلى موسم الحج، ليجتمع مع من يحج في تلك السنة من أهل المغرب¹⁰، حسب ما تم التخطيط له من قبل الجهاز الدعوي¹.

1- عبد الله القداح ومحمد بن الحسين، ولقبه دندان ورستم بن الحسين بن حوشب بن دندان النجار. (المقريري، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 19).

2- أبو عبد الله المختسب، داعي المغرب، وأصله من الكوفة، واسمه الحسين بن أحمد بن زكريا، من رام هرمز، وكان محتسبا بسوق الغزل من البصرة. ويعرف بالمعلم، حيث كان يعلم الناس مذهب الإمامية الباطنية، واتصل بالإمام محمد بن جعفر، ورأى أهليته، فأرسله إلى ابن حوشب صاحب اليمن، وأمره بامتثال أمره والاقتراء بسيرته. (المقريري، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 25).

3- بوبة مجاني، المذهب الإسماعيلي والقيادات الدينية والعسكرية الكتامية في المرحلة المغربية، من قضايا التاريخ الفاطمي في دوره المغاربي، منشورات مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2007، ص 80.

4- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 27. أيضا: ابن الأثير، المصدر السابق، المجلد السادس، ص 450.

5- ابن الأثير، المصدر السابق، المجلد السادس، ص 450. أيضا: المقريري، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 20.

6- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 29.

7- ابن الأثير، المصدر السابق، المجلد السادس، ص 450.

8- محمد بن أبي القاسم الرغبي القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، مطبعة الدولة التونسية، الطبعة الأولى، 1276، ص 51. أيضا: ابن الأثير، المصدر السابق، المجلد السادس، ص 450.

9- المراكشي، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 124.

10- ابن الأثير، المصدر السابق، المجلد السادس، ص 450.

فَحَلَّ أبو عبد الله مع فرقة الحجيج من أهل اليمن إلى مكة، فلما قضى الناس حوائجهم واستقروا بمخى، جعل أبو عبد الله يمشي بدروبها، فمرَّ على جماعة من أهل المغرب، وكانوا نحو عشرة رجال من قبيلة كتامة ملتفين على شيخ منهم، وكان من رؤساء الكتاميين بمكة رجل اسمه حُرَيْث الجميلي، وآخر اسمه موسى بن مكارم، وكانا ممن تشيعا في زمن قدوم الحلواني إلى بلاد كتامة².

فلما سمعهما يذكران لأصحابهم فضائل آل البيت بحماس قوي، استحسَن ذلك وجلس إليهما يذكر شيئاً من ذلك معهما، واسترسل في الحديث عن نفس الاتجاه مستخدماً مهارته في الكلام³، فأَنَسوا به وأعجبهم ومالوا إليه، وسألوه عن قصده، فظاهر لهم أنه يريد مصر لقصد التعليم، ولما آن رحيلهم أخذ يودعهم وقد عز عليهم فراقه، فسألوه الصحبة معهم إلى بلادهم إذ كان قصده التعليم والثواب، فأجابهم لما طلبوه، ورحل معهم إلى المغرب ولم يظهر لهم مراده، وفي أثناء ذلك سألهم عن خير بلادهم وعشائريهم⁴.

وقد أجابوه فيما كان يقصد الاستخبار عنه من غير علمهم، بأنه لا حكم لسلطان بني الأغلب عليهم، ووجود مصري ميلة وسطياف بالقرب من بلادهم، وطاعتهم لأكابر قبائلهم، التي يجمعها اسم كتامة ثم تفرقت قبائل وأفخاذ وبيوت، وأن منعتهم من مداومة الأعداء تعود بالأساس لكثرة عدتهم وخيلهم وسلاحهم، إلى أن أحاط ببلدهم خيرة، ففرح لما سمعه وأدرك أن أمره سينتهي بينهم⁵.

وسألوه عن أمره وشأنه، فقال لهم: "أنا رجل من أهل العراق، وكنت أخدم السلطان، ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البر، فتركتها وصرت أطيب المعيشة من المال الحلال، فلم أر لذلك وجهاً إلا تعليم القرآن للصبيان، فسألوه: أين يتأتى ذلك...؟ فذكر لهم بلاد مصر " فقالوا له: "ونحن سائرون إلى مصر، وهي في طريقنا فكن في صحبتنا إليها"، ورغبوا منه في ذلك، فصحبهم في الطريق، وكان يحدثهم، ويميل بهم إلى مذهبه، ويلقي إليهم الشيء بعد الشيء، إلى أن أشرقت قلوبهم، فرغبوا منه أن يسير إلى بلادهم ليُعلم صبيانهم⁶.

فأعتذر لهم ببعده الشقة، وقال: "إن وجدت بمصر حاجتي أقمت بها، وإلا فرمنا أصحابكم إلى القيروان"، فلما وصلوا مصر غاب عنهم كأنه يطلب بغيته، ثم اجتمعوا به وسألوه فقال لهم: "لم أجد بهذه البلاد ما أريد فرغبوا أن يصحبهم، فكانوا في صحبتته إلى أن وصلوا القيروان، فراودوه على أن يصل معهم إلى بلادهم، وضمنوا له ما أراد من تعليم الصبيان، فقال لهم: "لا بد لي من المقام بالقيروان حتى أطلب فيها حاجتي"، وكان شيخهم أحرصهم عليه، وأكرمهم له، فوصف له منزله، وموضعه في قبيلة كتامة، فأقام بالقيروان يتعرف أخبار القبائل، حتى تيقن بأنه ليس في قبائل إفريقية أكثر عدداً ولا أشد شوكة، ولا أصعب مراناً على السلطان من كتامة⁷.

سار القوم فدخلوا بلاد كتامة يوم الخميس للنصف من شهر ربيع الأول، سنة ثمانين ومائتين 280 هـ - 893 م⁸، وكان ذلك زمن إبراهيم بن أحمد الأغلي⁹، ومعهم أبو عبد الله الأندلسي وأبو القاسم الوراق¹⁰، وقد تنازع أبا عبد الله وكان اسمه عندهم أبا عبد الله المشرقي¹¹، كل واحد من الكتاميين ليذهب به إلى موضعه رغبة فيه، وحرصاً عليه... ثم آل أمره إلى أن يخبروه في حيث يحب أن يقصد

1- بوبة مجاني، المذهب الإسماعيلي والقيادات الدينية والعسكرية الكتامية في المرحلة المغربية، ص 80.

2- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 34. أيضاً: ابن كثير، المصدر السابق، المجلد السادس، ص 450. أيضاً: المراكشي، المصدر السابق، ص 124.

3- القاضي النعمان، المصدر نفسه، ص 34. أيضاً: موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 235.

4- ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص 51.

5- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 36 37 38. أيضاً: ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص 51.

6- المراكشي، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 124 125.

7- المرصد نفسه، ص 125.

8- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 47. أيضاً: ابن الأثير، المصدر السابق، المجلد السادس، ص 127.

9- ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص 51.

10- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 47.

11- المصدر نفسه، ص 47. أيضاً: ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص 51. أيضاً: ابن الأثير، المصدر السابق، المجلد السادس، ص 451.

عنهم، وفي ذلك قال: " في أي موضع عندكم فج يسمى فج الأخيار، فنظر بعضهم لبعض كأنهم رأوا أنه علم ذلك، قالوا: هو عند بني سكتان وطريقهم في هذا الموضع منه، قال: فإليه نقصد ثم نأتي في كل قوم منكم إن شاء الله في مواضعهم، ونزورهم في بيوتهم، ولا نجعل لأحد منكم من نفسي خطأ دون أحد، فأرضاهم ذلك، وسار كل قوم منهم إلى جهتهم¹.

وسار أبو عبد الله مع حريث وموسى وأبي القاسم الورفجومي وأبي عبد الله الأندلسي إلى إيكجان، موضع موسى وحريث من بني سكتان، فلما وصل إلى فج الأخيار قال لهم: هذا فج الأخيار. قالوا: نعم. ثم قال له موسى وحريث: والله ما نعلم أننا ذكرنا لك هذا الفج، فمن أين علمت اسمه؟ ثم نراك قد عرفته دون أن نعرفك به. قال: البلدان توصف للناس وتذكر لهم، وإن لم يروها. وكان بعد ذلك يقول: والله ما سميت هذا الفج إلا بكم، ولقد جاء في الحديث: أن للمهدي هجرة تنبو عن الأوطان، في زمن محنة وافتتان ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان، قوم مشتق اسمهم من الكتمان، فأنتم هم كتامة، وبخروجكم من هذا الفج يسمى فج الأخيار².

نزل أبو عبد الله بإيكجان للإقامة بها، وعاد كل من كان معه من الحجاج من كتامة إلى مواضعهم³، لما وجدته بها من ثلثة طبعيتها الجبلية الوعرة، التي أتاحت له مراقبة العدو منها على مسافات بعيدة⁴، وبُعدها عن مركز السلطة الأغلبية بمدينة القيروان، وعدم اطلاع أهلها على ما كان يدور من صراع فكري ومذهبي في مدن القيروان وفاس وتاهرت، ما أبقاها في عزلة فكرية وعلمية، جعلت معرفة الكتامين بالإسلام تتسم بالبساطة⁵.

بالإضافة إلى شساعة رقعتها الجغرافية، وهو ما ساعده على مباشرة العمل الدعوي والعسكري، وامتلاك القدرة على التحرك والتخطيط، وانتهاج سياسة الجوسسة، التي مكنته من الاطلاع بصفة مسبقة على أخبار الأعداء⁶، وتحويله على غدة القبائل الكتامية، لما لم تتميز به من البأس والشدة، وما تملكه من خيل وسلاح، الشيء الذي أهلها لتكون المكان الأنسب للانصراف لتنظيم شؤون الدعوة، ونشرها في كافة آفاق كتامة⁷.

فأقبل عليه بمقر إقامته بإيكجان، شيخ المشايخ هارون بن يونس بن موسى المستالي، وجاءه الحسن بن هارون الغشمي من تازروت، وأبو يوسف ماكنون بن ضابرة، وابن أخيه تمام بن معارك أبو زاكي من قبيلة أجانة، لتقصي أمر دعوته، وحدث أن مرض الداعي فعرض عليه هؤلاء الذهاب إلى حمام بمدينة ميله، فمضى وهو يركب بغلة شهباء، بمعية رجل من قبيلة بني سكتان إلى ميله، ونزل بفندق فرجون، ولما علم صاحب ميله موسى بن العباس بوجوده بالمدينة، طلب من صاحب الفندق إحضاره إليه، لما بلغه عن شهرته في إيكجان، لكن فرحون صاحب الفندق خاف أن يصيب ضيفه مكروه من موسى بن العباس، فعاد إلى فندقه وأمر الداعي بالانصراف خلصة، ولما تأكد من ذلك عاد إلى موسى وأخبره بانصرافه قبل أن يدركه⁸.

فعاد أبو عبد الله إلى إيكجان، وجاهر بمذهبه بها، وأعلن إمامة أهل البيت، ودعا للرضى من آل محمد على عادة الشيعة⁹، فانتشرت دعوته في كل أنحاء كتامة، وعُرف وشُهر "بالمشرفي" لقدمه من المشرق، ثم نسب إليه كل من بايعه، ودخل في دعوته، وسموا

1- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 47 48.

2- المرجع نفسه، ص 48.

3- نفسه، ص 49.

4- محمد الصالح مرمول، المرجع السابق، ص 40 44 41.

5- بوبة مجاني، دراسات إسماعيلية، ص 80.

6- محمد الصالح مرمول، المرجع السابق، ص 40 44 41.

7- بوبة مجاني، المذهب الإسماعيلي والقيادات الدينية، ص 80 82.

8- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 50 51 52.

9- المقرئ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 25.

"المشاركة"¹، وأخبروا من قدموا عليه من أصحابهم بأخباره، ووصفوا لهم علمه وحاله، فأقبل الناس إليه من كل ناحية، فكان يجلس لهم ويحدثهم بظاهر فضائل علي بن أبي طالب (رض)، وعلى الأئمة من ولده، كما تواضع مع أتباعه، حيث كان يشاورهم في مختلف الأمور، ولا ينفق من مال الدعوة إلا عند الضرورة²، وقد تسامع الناس بأنه يدعو إلى أمر مكتوم لا يعلمونه، وأن من دخل فيه لم يظهره، وكل من جاءه دعاه، وانصرف إلى بلده وأهله، ومنهم من أقام بإيكجان رغبة في القرب منه، ودعا أهلها من قبيلة بني سكتان فاحلوا له مجلسا للسمع³، والتزم كبار قومها بالضيافة والإنفاق على من يأتيه رغبة في الثواب⁴.

وشيثا فشيئا نجد هذا الرجل الداعي يتحول إلى شيخ قبيلة بني سكتان، ويصلح أمر القبيلة على يده، وينشط رجالها في مغاورة حدود الأغالبة، وأنشأ لنفسه دائرة من الأصحاب والأنصار، ورفع نفسه جأها بالتقوى والصلاح والعدالة وسعة العلم، وسرعان ما أقبلوا على دعوته، فصار يأخذ عليهم العهد بالإخلاص للمذهب الشيعي، وتوارد عليه البربر من كل الجهات، فتمكنت دعوته في كل أنحاء كتامة، وقد نجح في إقناع أنصاره بفساد الحكم الأغلبي، ومثأهم بأن يورثهم الله بلاد الأغالبة إذا هم صدقوا في تأييده⁵، فالتزمت كتامة الطاعة لأبي عبد الله، ودخلت قبائل كثيرة في دعوته، فصير لهم ديوان⁶.

4 - 1 - منطقة سطيف والتمدد الإسماعيلي في بلاد كتامة:

لا خلاف في أن منطقة سطيف، التي أصبحت ثاني أكبر مناطق تركز نشاط دعاة الدعوة الشيعية بعد ميله، والتي شمل نشاطها قرى: بني عزيز، عين السبت، معاوية، سرج الغول، بابور⁷، قد كانت المحطة المهمة في التكوين السياسي والعسكري للدعوة الإسماعيلية داخلها، وكان لها دور محطة الانطلاق للتوسع خارج بلاد كتامة، وإعلان الخلافة الفاطمية⁸، كما كانت من بين الميادين الفاصلة، في حسم نتائج معركة الصراع السياسي في ظاهره، بين الدولة الأغلبية القائمة والخلافة الفاطمية الناشئة، والمذهبي السني الشيعي في باطنه، والذي استمر ما بين سنتي 291 هـ - 322 هـ.

فقد اجتهد رجال الأغالبة لصد تغلغل حركة الدعوة الإسماعيلية، في نصح بقية الكتامين بإخراج هذا الرجل الداعية الشيعي من إيكجان، خاصة أن رؤساء القبائل وولاة البلدان، لم يروا نهضة من إبراهيم بن أحمد في أمره، وخوفهم على زوال رئاستهم⁹، بعد أن كرهوا كرهوا الانضمام إلى هذه الدعوة، التي سبقهم إليها غيرهم، كما امتنعت بعض القبائل من الأخذ بها، كراهية في أن تصبح تابعة للقبائل التي اكتسبت ميزة السبق، وعارضها شق من قبيلة ما، بسبب انضمام الشق المنافس له في زعامة القبيلة¹⁰.

فاجتمعوا وتعاقدوا فيما بينهم على التصدي لدعوته، وكان ممن تعاهد على ذلك موسى بن العباس صاحب ميله، وعلي بن عسلوكة صاحب سطيف، وحي بن تميم صاحب بلزمة، وهؤلاء أمراء هذه المدائن، الذين عندهم العدة وفيهم النجدة، والقوة والأموال الكثيرة.

1- هو اصطلاح غير شائع، يطلق على كل من انظم للداعي، فيقال له تشرّق، والأتباع سمووا المشاركة. (القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 79).

2- محمد الصالح مرمول، المرجع السابق، ص 43.

3- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 48 49 52 53.

4- المرجع نفسه، ص 53.

5- حسن مؤنس، المرجع السابق، ص 142.

6- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 53.

7 - رضا بن نية، مجال كتامة الدعوة، مقارنة مواضيعية، إيكجان وأحوالها أنموذجا، مقال غير منشور، الملتقى الوطني سطيف تاريخ وحضارة، المتحف الوطني العمومي سطيف، جانفي 2012، ص 2.

8- محمد مرمول، المرجع السابق، ص 41 45.

9- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 79.

10- موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 247.

ومن مقدمي قبائل كتامة وكبارهم وولاة أمورهم: فتح بن يحيى المسالتي، ومهدي بن كناوة رئيس لهيصة، وفرح بن جيران رئيس أجانة، وقيم بن فحل رئيس لطاية، وزيد المتوسي رئيس متوسة¹.

ولقد تمثلت حركة المعارضة في بادئ الأمر، في القيام بحملة إشاعة مركزة ضد الداعي، وضد أنصاره من بني سكتان، وضد الحركة الإسماعيلية عموماً، ثم تحولت إلى الضغط على بني سكتان لتسليمه²، فاجتمع رأيهم على أن يرفعوا الأمر إلى بيان بن صقلان، ولم يكن يومئذ قد دخل في أمر أبي عبد الله. ولما بلغ أبو عبد الله ذلك، اختفى ولم يكن يُعرف له مكان، فأرسل القوم جماعة منهم إلى بيان بن صقلان، وبعثوا إليه أربعة أقواس ومائة شاه هدية مقابل إخراجهم. فقال لهم بيان: هذا الرجل قد نزل بين أظهرنا، وصار ضيفاً عندنا، وفي إخراجنا إياه وطردهنا له نقص وعيب علينا، ولكن من الرأي أن نجتمع العلماء ويخرج إليهم وينظروهم، فإن كان على حق نصره واتباعه، وإن كان على باطل عُرف ذلك لمن اتبعه فرجع عنه³.

فرجعوا إلى أصحابهم، واجتمعوا أن يمضوا في جماعة وعُدَّة، ويظهروا له أنهم جاؤوا بالعلماء، فإذا خرج إليهم قتلوه، فساروا في جمع عظيم من الخيل والرَّحْل، فأخذوا الطريق ما بين تاكوت ووادي النجاة، لكن بيان بن صقلان تفطن لرحفهم، فغضب وشب بينهم القتال، والذي انتهى بهزيمة جماعة المعارضين للداعي، وقوي أمر بني سكتان واشتد، وبقي أبو عبد الله مستتراً⁴.

لكنهم عادوا واعترفوا بخطئهم لبيان بن صقلان، طالبين الصلح والسماح، ووعدهم في أن يتلطف في إخراجهم، وجعله يتكلم في ذلك، فلما اتصل بيان بن صقلان بأبي عبد الله وبجماعة المؤمنين، اجتمع من كان من بني سكتان، وكان بينهم الحسن بن هارون الغشمي من كبار تازروت، فأتى إلى أبي عبد الله فذكر له ما اتصل به، وسأله البقاء أو النقلة إلى مكانه في تازروت، فتشاور الأولياء في ذلك، وعظم عليهم مغادرته لهم، لكنهم اطمأنوا لذهابه مع الحسن بن هارون. واستقر أمرهم جميعاً على خروجه مكرهاً من إيجكان إلى قاعدة تازروت، ولم يكد يستقر بها حتى تلاحق به الأنصار، فاجتمع إليه خلق عظيم من قبائل كتامة من المؤمنين، وأقاموا عندهم مرابطين مع أبي عبد الله منتصبين للجهاد معه⁵، ومنها بدأ نشاطه لافتتاح مدينة ميله، وكان ينصرف بحد انجازه عمله فيها إلى قاعدة تازروت⁶.

ولقد طال مكوث الداعي بتازروت، والتي لم يغادرها إلا بعدما اضطرب بحلول سنة 289هـ، لمواجهة الجيش الأغلي، بقيادة أبي عبد الله محمد الأحول بعيداً عنها في معركتين ضاريتين، تلقى فيهما رجال الداعي هزيمة نكراء⁷، خرج على إثرها نحو ميله، وقاتل أهلها قتالاً شديداً، وأخذ الأرياض، ثم ملك البلد بأمان⁸، ومنها واصل الداعي السير، واستقر للمرة الثانية بقلعة إيكجان، بعدما ضمن دخول أهم أهل بني سكتان إلى مذهبه، من أمثال بيان بن صقلان، وأحمد بن سليمان⁹، وتمكنه من إيقاف زحف الجيش الأغلي نحوها.

فحصن بقلعته إيكجان، وخطب في أتباعه قائلاً: "أنا لا أدعوكم لنفسي، وإنما أدعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت، الذي صفته كذا وكذا"، ووصف لهم من كراماته ما تنكره العقول، وقال لهم: "هو صاحب هذا الأمر، وأنا مُنصَرَف بين يديه إذا ظهر"، يعني

1- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 80.

2- موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 247.

3- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 81 82 83.

4- المصدر نفسه، ص 84 83.

5- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 85 86 87 88 89.

6- موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 155.

7- المرجع نفسه، ص 250 256.

8- المقرئ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 29.

9- بوبة مجاني، دراسات إسماعيلية، ص 153.

عبيد الله، ولم يكن رآه قط، وإنما يسمع أخباره من شيوخ الشيعة. وكان يعتقد ذلك اعتقاداً صحيحاً، لا مزية فيه، إلى أن صفا له أمر البربر، فنال الحواضر وهزم ملك إفريقية، وانتزعها من يديه¹، وبهذا يكون قد تمكن من بسط سيطرته على المجتمع الكتامي، وتحويل سلطة سلطة المجتمع من العصبية القبلية إلى العصبية المذهبية، ومن سلطة المشيخة إلى سلطة الدعوة².

واتخذ بها قصراً لإقامته، وأمر أتباعه بتعميرها وبناء الدور، وصارت دار المحجرة للمؤمنين³، ومدرسة للمجالس الحكمية، التي كان يشرف عليها بنفسه⁴، قضى فيها ما يقرب من سبع سنوات في بث العقيدة وتمكينها⁵، وجعل منها مركزاً لتجّع وانطلاق الدعاة والأنصار، ومنها كان يرسل إلى إفريقية قوماً يأتونه بالأخبار... فقليل كان لا يمر يوم إلا وعنده منها خبر⁶.

ثم انتقل بالدعوة إلى مرحلة جديدة، وهي مرحلة التنظيم العسكري والإداري، فجعل من إيكجان مركزاً للدفاع ومراقبة تطور الأوضاع، وقاعدة عسكرية تنطلق منها الجيوش للجهاد وإليها تعود، وبادر باتخاذ ديوان الجند، أسند رئاسته إلى القائد الكتامي عبدون بن حباسة، وألزم أتباعه العسكرية، بعد أن قسم كتامة الأرض والجيش إلى ستة أسبع، تطبيقاً لأسس الفلسفة التي قام عليها الفكر الإسماعيلي، وجعل على كل سبع مقدماً وقائداً وداعية، سواء كان منطقة إدارية عسكرية أو فرقة جيش، وسمى هؤلاء المقدمين بالمشايخ، ورد إليهم النظر في الأموال، فيقوم الدعاة بجمع الضرائب المذهبية من الأتباع، ويتولى قواد الجيش الإشراف على أموال الحروب⁷.

أما سطيف فقد نزل على مشارفها جيش كبير، بلغ قوامه اثني عشر ألف رجل بين فارس وراجل، يقوده محمد المعروف بأي حوال بن عبد الله أبي العباس بن إبراهيم بن أحمد، والذي تنقّى أفراد جيشه واختارهم بنفسه، وقاد حملة قمع واسعة في بلاد كتامة، بسبب تعاون أهلها مع الشيعة الإسماعيلية، وأخرج إليه أبوه الأموال والسلاح والعدة، فأسبغ عليهم العطاء، وحمل فتح بن يحيى وأبا إبراهيم بن موسى بن العباس، وأمرهم بالسروج واللحم المحلاة في جماعة، كانوا معهم من حاة كتامة⁸.

خرج الجيش من مدينة تونس في ذي القعدة من سنة سبع وثمانين ومائتين، وكل من مر عليه من القبائل بذل لهم العطاء، وسار إلى سطيف فلم يصل إليها حتى زاد في عسكره مثله، وتلقاه بنو عسلوكة أصحاب سطيف، وبنو تميم أصحاب بلزمة، مع حلفائهم من كتامة غير المنحذين للدعوة، فصاروا في عساكر عظيمة، ومال لهم من كان قد دخل في حزب أبي عبد الله من كتامة أهل مجرس، فقتلهم قتلاً دريعاً، ونهب أموالهم، وسبى نساءهم وأولادهم، ثم قصد أبا عبد الله تازروت، حيث انتقل أبو عبد الله الداعي⁹.

وكرر فعل هذه التبعية والولاء الكامل للأغالبة، ودورها الكبير في تموين وإيواء جيوشها التي وفدت إلى المنطقة، فقد ظلت منطقة سطيف هدفاً أساسياً، لأتباع الداعي "المشاركة" بعد ميلة، فلما استقام لأبي عبد الله أمر من بنواحيها من كتامة، وافتتاحه مدينة ميلة¹⁰،

1- المراكشي، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 128 129.

2- بوبة مجاني، المذهب الإسماعيلي والقيادات الدينية، ص 85.

3- بوبة مجاني، المذهب الإسماعيلي والقيادات الدينية، ص 85. أيضاً: محمد الصالح مرمول، المرجع السابق، ص 42.

4- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 146. أيضاً: موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 266 268.

5- محمد الصالح مرمول، المرجع السابق، ص 42.

6- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 146.

7- بوبة مجاني، دراسات إسماعيلية، ص 153 154. أيضاً: محمد الصالح مرمول، المرجع السابق، ص 42.

8- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 139. أيضاً: حسن مؤنس، المرجع السابق، ص 142.

9- المصدر نفسه، ص 144. أيضاً: ابن الأثير، المصدر السابق، المجلد السادس، ص 128. أيضاً: محمد طالي، الدولة الأغلبية التاريخ السياسي، 148هـ - 296هـ، دار الغرب الإسلامي، 1995، بيروت، ص 712.

10- كانت مدينة ميلة في هذه الفترة تحت إمرة بنو أبي جنزير، من عرب ربيعة، ويعرفون بالسناجرة، لأنهم من سنجار مدينة في ديار ربيعة، وكان رئيسهم يومئذ حسن بن أحمد. (القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 135).

جمع جموعه وزحف إلى سطيف في النصف الثاني من سنة 291هـ - 903م، وعزم على إنهاء أمرها¹، وكانت تحصينات القلعة جيدة موروثة عن العصور القديمة²، ولم يكن آنذاك للمغربين مُعدّات للحصار، وتمتع علي بن حفص بن عسلوكة بصيت استحققه في إقدامه في الحرب، فَهَمَّ بمساعدة أخيه أبو حبيب جعفر³، مع من والاهما من مسالمة ولهيفة، فضلا عن العناصر التي استقرت في المدينة وفي أرياضها⁴، فسارت إليه جماعة من وجوههم وحماهم، فقاتل أبا عبد الله، وكان يخرج بهم وبأهل سطيف إليه ويقاتله، ويكون منه البلاء في في ذلك ما لم يشهد من أحد غيره مثله⁵.

ف قيل أنه قضى في يوم واحد على ثلاثة عشر فارسا في القتال، لا يزيد الواحد منهم ضربة واحدة، وكبد المهاجمين خسائر فادحة، فقال أبو عبد الله لما شهد ذلك منه: هذا الملعون مَن قال الله تعالى: " وإذا بطشتم بطشتم جبارين"، وأقام أبو عبد الله على سطيف أربعين يوما وهو يقاتله، ثم انصرف إلى إيكجان فأقام بها شهرا، وجمع الأولياء، و أوعب في جمعهم، وزحف مرة أخرى على سطيف بعساكر لا يحصى عددها، حتى أحاط بها، وشدد على منافذ المدينة، فخرج إليه علي بن عسلوكة بجمعه فقاتله، كما كان يقاتله في المرة الأولى خارجا من المدينة، إلى أن تغلب عليه، وحاصره في الحصن، فمات هو وأخوه أبو حبيب بعد أيام قليلة، فانحل أمر سطيف بوفاتهما⁶.

وكان ممن نزع إليها من الكتامين داوود بن حباسة اللهيصي، وهو من أختيار فرسان لهيفة، فال أمره بعد ذلك إلى أن كان داعيا من الدعاة، فزَمَّ أمر سطيف، وكَلَّمَهُ إخوته، وهُم مع أبي عبد الله في أن يَسْتَأْمَنَ، فقال: إن كنت أَسْتَأْمَنَ على أمان أهل البلد كلهم فعلت، فأخبر بذلك أبا عبد الله، فأَمَّنَهُ ونزل إليه، فأخذ الأمان لأهل مدينة سطيف منه⁷.

ففتحوا أبوابها ودخل الأولياء إليها، وقُتِل من استحققت القتل بها⁸، وقام جند كتامة بتخريب سور المدينة واستحكاماتها العسكرية، حتى حتى لا يفكر سكان المدينة في الثورة ضد الحركة الجديدة⁹، وكان أهل علي بن عسلوكة قد دفنوه، وأخاه لما ماتا، وأخفوا مكان دفنهما عن أتباع الداعي، خشية نبشهما وصلبهما، لما كان في أنفس الأولياء منهما¹⁰.

وانصرف أبو عبد الله إلى إيكجان بجميع العساكر، واستعمل عاملا على مدينة سطيف¹¹، ويرجح أن سقوطها التام في يد أنصار الدعوة الشيعية، قد كان بنهاية سنة 291هـ، ويوافق هذا التاريخ أكتوبر أو نوفمبر 904م¹²، فاتخذت منذ السيطرة عليها أهمية كبيرة بالنسبة لأنصار الداعي، بحكم ارتباطها بمركز الدعوة، وجُعِلت فيما بعد كمعبر رئيسي للجيش الذي توجه إلى طبنة، وبلزمة، وباغاية،

1- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 166.

2- المقصود بها هو القلعة البيزنطية التي تحصن بها الجيش الأغلي.

3- محمد طالي، المرجع السابق، ص 734.

4- موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 276.

5- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 166.

6- المصدر نفسه، ص 166 167. أيضا: ابن خلدون، العبر، الجزء الرابع، ص 72.

7- مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ص 166.

8- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 168. أيضا: مجهول، المصدر السابق، ص 166.

9- موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 151.

10- القاضي النعمان، المصدر السابق، ص 168.

11- المصدر نفسه، ص 168.

12- موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 281.

وقد استمر ذلك حتى ضُمت أغلب مدن الزاب وإفريقية، وهي أولى الثمرات التي حققها الداعي بعد استقراره بقلعته بإيكان، وإعلانها دار للهجرة¹.

ولما رأى زيادة الله الثالث الأغلي استيلاء أبي عبد الله على معظم البلاد، وأنه قد فتح مدينتي ميله وسطيف، صرف تركيزه على استرجاعهما، وأصبحت جهود الجيش الأغلي مكرسة نحو مركز الدعوة والمقاومة في إيكان، كما أصبح طريق حملاته العسكرية يأخذ طريقا آخر، هو خط باغاية قسنطينة، وهي إستراتيجية اعتمدها الأمير زيادة الله لتصفية الحركة الإسماعيلية في مقرها، فجهز لذلك قوة كبرى مع أواخر سنة 291-903م²، بقيادة إبراهيم بن حبشي بن عمر التميمي، للهجوم على الداعي الذي تحصن بإيكان، يراقب يراقب تطور الأوضاع، وانتصب لذلك الغرض الجيش الأغلي بقسنطينة،... فعزم إبراهيم بن حبشي عندئذ على الشروع في الهجوم، وسبق أن جاء الأمر من زيادة الله الثالث، لشبيب بن أبي شداد صاحب طبنة، بالخروج بجنوده لدعم جيش قسنطينة، الذي بلغت عدته أربعين ألفا، وبدأت جيوش الأغلبة بالهجوم، ولما بلغت قرية كيوننة (كينونة) اصطدمت بكوكبة من الخيالة خرجت للاستطلاع بأمر أبي عبد الله الداعي، والأرجح أن يكون ذلك قد وقع في رجب 292هـ-905م³.

فاحتد القتال وقطعت أرجل إبراهيم بن حبشي، وتخلّى الجنود الأغلبة عن كل عتادهم وجميع أحمالهم وكل أموالهم، وكانت وجهتهم باغاية، فلاحقهم الأولياء كامل النهار، وقتلوا منهم خلقا عظيما، وكانت لمعركة قرية كيوننة عواقب وخيمة على الجيش الأغلي⁴، الذي انحصرت أدواره بعدها في الدفاع من مراكز بعيدة عن كتامة، وفقد الأمل في إسقاط قلعة إيكان⁵، وفي المقابل حصل الداعي على انتصار كبير، وعظم قدره وعظمت كذلك قوته العسكرية، وتأكدت سيطرة أنصاره على منطقة سطيف، ومعظم بلاد الزاب⁶.

وبعد هذه الانتصارات المتتالية، انطلق بحلول سنة 293هـ-906م جيش الداعي من إيكان عبر سطيف، للزحف على مدينة طبنة عاصمة الزاب⁷، التي كانت تمثل دور القاعدة الخلفية للحملات الأغلبية، وخط الدفاع الأول عن حاضرة الدولة "رقادة"، كما أن الاستيلاء عليها يضمن امتيازات اقتصادية لرجال الدعوة الإسماعيلية⁸.

فحاصرها ونصب عليها الدبابات، ونقب برجا وبدنة، فسقط سور المدينة بعد قتال شديد، ومَلَكَ البلد، فاستسلمت المدينة على أساس منح الأمان في أواخر سنة 293هـ، حيث ولى عليها يحيى بن سالم، ثم سار إلى مدينة بلزمة، التي كانت من مراكز بني تميم، ومن مضارب قبيلة مزانة، وكان قد حاصرها مرارًا كثيرة فلم يظفر بها، فلما حاصرها الآن ضيق عليها، وجدَّ القتال ونصب عليها الدبابات ورمها بالنار، فأحرقها وفتحها بالسيف، وقتل الرجال وهدم الأسوار⁹، وعاد مرة أخرى بجيشه إلى إيكان، بعد أن استولى بالكامل على طبنة وإقليم الزاب مهد الدولة الأغلبية¹⁰.

1- موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 277.

2- المرجع نفسه، ص 277.

3- ابن الأثير، المصدر السابق، المجلد السادس، ص 455.

4- المصدر نفسه، المجلد السادس، ص 455. أيضا: محمد طالي، المرجع السابق، ص ص 735 736.

5- موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 279.

6- ابن الأثير، المصدر السابق، المجلد السادس، ص 455. محمد طالي، المرجع السابق، ص 737.

7- عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 513.

8- موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 281.

9- ابن الأثير، المصدر السابق، المجلد السادس، ص 456.

10- المصدر نفسه، ص 130.

وتوالى فتوحه بانضمام تيجس، وباغاية، إلى دائرة النفوذ الإسماعيلي، كما انضمت بعدهما تيفاش، وقالمه، ومسكيانة، وتبسة، والقصرين، وخضعت مجانة وحيدرة بعد حصار¹، إلى أن تمكن من القضاء النهائي على حكمهم أول رجب سنة 296هـ - 909م، بدخول أبوعبد الله رقادة، فأمن الناس ومنع النهب، وخرج الفقهاء من أهل القيروان لتهنئته بالفتح، وأعلنت البيعة لعبيد الله المهدي، كأول أمير للمؤمنين في السنة الموالية 297هـ - 910م، تحت لواء الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي².

والجدير بالذكر أن سكان منطقة سطيف الفاطمية، قد قاموا خلال هذه الفترة بدور بارز في مقاومة وتقويض ثورة أبي يزيد مخلد بن كداد (صاحب الحمار)، حيث استدعاهم المنصور بالله الفاطمي³ خلال مطاردته فلول ذلك الثائر، في معركة شرسة، جرت رحاها بجبال بوطالب جنوب منطقة سطيف، التي احتفى بها أبي يزيد، تكبد خلالها خسارة قاسية كلفته فقدان حوالي 10 آلاف جندي من أتباعه⁴، مما اضطره للهروب والاحتماء في قمة كيانة بجبال المعاضيد إلى أن قُضي عليه سنة 336هـ - 947م⁵.

بعدها قام سكان سطيف باستقبال الخليفة الفاطمي بمدينتهم، وقد مكث بين ظهرانيهم فترة من الزمن بعد عودته من محاربة الحلفاء الأمويين بالأندلس، خاصة من قبيلة زناتة بالنواحي المجاورة لتيهت، ومنها اتصل بالكثامين، طالبا منهم مرافقة حوالي أربع عشرة ألف عائلة، لتعمير عاصمة الدولة الجديدة المنصورية⁶، وقد تعرض إليها ابن حوقل فوصفها خلال هذه الفترة بأنها: "كثيرة الخير تقارب ميله والمسيلة وتصاقب القسطنطينية، وبربرها بالصورة التي ذكرتها من بذل الطعام، وكان أهل كتامة بهذه الناحية متشيعين، وبهم ظهر أبو عبد الله الداعي وأخذ المغرب، وجميع هؤلاء البربر في وقتنا هذا فقراء بتواتر الفتن ودوام القحط، وكثرة القتل والموت وكذلك كتامة في حالها"⁷.

وبذلك يكون بروزها على سُلّم الأحداث التاريخية في القرن الرابع الهجري، الموافق للقرن العاشر الميلادي قد بلغ أوجه، ويرجع ذلك لعدة عوامل أهمها، أنها كانت من بين الأمصار التي توافدت عليها عناصر عربية، منذ القرن الثاني الهجري، كما كانت من بين حواضر قبيلة كتامة الكبيرة، ما جعل الكثير من الناس يهاجرون إليها بعد نجاح الدعوة الإسماعيلية بإقليم كتامة، ما انعكس إيجابا على ازدهارها عمرانيا واقتصاديا، فأضحت منذ بداية القرن الرابع الهجري: "مدينة كبيرة بين تيهت والقيروان، محصنة، ولها كورة تشمل على قرى كثيرة، وعمارة متصلة"⁸، لم تفقد مكانتها في عهد الفاطميين، رغم تدهور أسوارها وحصونها أثناء فرض السيطرة والاستيلاء عليها.

5 - سطيف والتبعية الزيرية الحمادية:

بعد انتقال الخلافة الفاطمية إلى القاهرة سنة 361هـ - 971م، وتراجع نفوذ قبيلة كتامة بالمنطقة، صارت سطيف تحت سلطة الدولة الزيرية، في الفترة الممتدة ما بين 362-454هـ الموافق لـ 972 - 1062م، التي ما لبثت أن أدخلت قبيلة كتامة ضمن القبائل الغارمة، بعد أن كانت سيّدة على المنطقة كلها، فكان ردّ الكثامين أن استغلوا فرصة نزول داعي العزيز بالله الفاطمي، المدعو أبو الفهم

1 - موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 287.

2 - المقرئ، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 32.

3 - هو الطاهر إسماعيل بن محمد بن عبيد الله، الملقب بالمنصور بالله، ولد بالقيروان سنة 299هـ - 913 م، نشأ في كنف أبيه القائم بالله، تولى حكم الدولة الفاطمية بعد وفاة أبيه عام 334هـ - 945 م، فلما توفى والده كتم خبر وفاته، ولم يتسم بالخليفة، ولم يغير السكة ولا بنود الدولة إلى أن فرغ من قتال صاحب الحمار، بعد الإمام الثالث عشر في سلسلة أئمة الإسماعيلية، ويعود له الفضل في تأسيس عاصمته المنصورية سنة 337هـ - 948م. (محمد الصالح مرمول، المرجع السابق، ص 90... 94).

4 - Maurice Villard, Yves Bassard, op cit, p59.

5 - ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص 55 56 57.

6 - هي مدينة مجاورة لمدينة القيروان بتونس، وقد كانت عاصمة للدولة الفاطمية ما بين 946هـ الموافق لـ 975 م.

7 - ابن حوقل، المصدر السابق، ص 369.

8 - الأصبخري، المصدر السابق، ص 20.

حسن بن نصرويه الخراساني ببلادهم سنة 376 هـ¹، الذي توجه إلى بلد كتامة بعد أن جهّز يوسف بن عبد الله الكاتب بالخييل، وأمده بما يحتاجه من مال، فدعا أهلها فأجابوه وتقررت أموره عندهم²، والتفوا حوله حتى صار يجمع العساكر ويركب الخيل، وعمل بنودا وضرب السكة، واجتمع إليه خلق كبير منهم³.

ثم ورد من مصر سنة 377 هـ رسولان، من نزار إلى الأمير الزيري أبو الفتح المنصور بن بلكين، أحدهما رجل كتامي يعرف بأبي العزم، وآخر يدعى محمد بن ميمون الوزان، ومعهما سجلات للمنصور، فقيل أنهما أمراه عن نزار أن لا يتعرض لأبي الفهم ولا لقبيلة كتامة، فشتمهما المنصور، واسمعهما مكروها، وقال لهما: أبو الفهم وكتامة فعلوا وفعلوا، وأغلط لهما في القول ولما أرسلهما، فأقاما عنده شهري شعبان ورمضان، ومنعهما من الخروج إلى بلاد كتامة وإلى أبي الفهم، وقال: "أمضيا إليه حتى تريا ما يكون منه"⁴.

ولما قويت شوكتهم وتعاضم خطرهم، تحرك الأمير أبو الفتح المنصور سنة 378 هـ - 988 م بعساكره إلى بلاد كتامة، قاصدا قاعدتهم بمدينة سطيف مع أبي الفهم، وقد ظهرت سكتته وصارت حوله جيوش عظيمة، فسار المنصور حتى وصل بلاد كتامة، وتناقل في سيره حتى حلت سنة 398 هـ، فلما قرب من ميله عزم على قتل أهلها، فخرج إليه النساء والأطفال، فلما رآهم بكى وكف عنهم القتل، ونهبت العساكر كل ما فيها⁵.

ثم أمر بتخريبها وهدم أسوارها، ونقل أهلها إلى باغاية، فاجتمعوا ومضوا إليها، وقد سلّم لبعضهم ما خف من الذهب والفضة، فلقبهم ماكسن بن زيري بعسكره، فأخذ كل ما كان معهم، ثم توغل المنصور إلى داخل كتامة، وجعل لا يمر للكتاميين بمنزل ولا قصر ولا دار إلا أمر بهدم ذلك، وحرقه بالنار، ومعه أبو العزم وابن ميمون ينظران إلى فعله، ويقول إليهما: "هؤلاء الذين زعمتم أنهم يمحضون بي بجبل في عنقي إلى مولاكما"، وكانا قد خاطباه بذلك لما اجتمعا به⁶.

وواصل سيره حتى بلغ مدينة سطيف، التي كان بها عدد كبير من أنصارهم، فحاربهم حتى ألحق بهم الهزيمة، فهرب على إثر ذلك أبو الفهم إلى جبل وعمر، فأرسل المنصور من يطلبه، ليتمكن من الإمساك به في يوم الثلاثاء أول صفر سنة 398 هـ، فأدخله إلى حرمة فضربه ضربا شديدا، حتى أشرف على الموت، ثم أمر المنصور بإخراجه، فنحره وشق بطنه وأخرجت كبده، وأكل أفراد جيشه لحمه، وقُتل بسببه والي ميله وعدد كبير من أنصاره من قادة ورجال كتامة، وأنزل بهم الذل والهوان⁷، ودانت المنطقة كلها لسلطة بني زيري، وآلت إدارتها للقائد أبو زعل بن هشام⁸، فأصبحت قبيلة كتامة تحت الرقابة، وتغذى لأتفه الأسباب، ويخشى جانب رجالها الباقين، فيحشرون فيحشرون مع المخالفين لصنهاجة لمجرد الشبهة⁹، ورحل المنصور إلى أشير وردّ أبا العزم وابن الوزان إلى مصر ليخبرا من أرسلهما، فآخبراه بما كان من المنصور¹⁰.

كما عرفت منطقة سطيف أيضًا في سنة 379 هـ، ثورة الثائر أبو الفرج ضد الحكم الزيري، الذي ادعى النسب لأبناء أحد الأمراء، من ولد القوائم الذين كانوا بالمهدية، فاستطاع بذلك إقناع الكتاميين بالانضمام إليه، وزحف بعسكره لقتال جيش أبي زعل، لكن هذا

1-Maurice, (v), Yves (B),Op, cit, pp 59 60.

2- المراكشي، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 241.

3- النويري، المصدر السابق، الجزء الرابع، ص 100. أيضا: Maurice v, Yves B, Op, cit, pp 59 60

4- المصدر نفسه، ص 101.

5- نفسه، ص 101.

6- المراكشي، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 243. أيضا: النويري، المصدر السابق، الجزء الرابع، ص 101

7- المصدر نفسه، ص 243. أيضا: النويري، المصدر السابق، الجزء الرابع، ص 101

8-Maurice, (v), Yves (B),Op.cit, pp 59 60.

9- موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص 163.

10- النويري، المصدر السابق، الجزء الرابع، ص 102.

الأخير تفادى مواجهته، وكتب إلى المنصور، الذي قدم لمساعدته على رأس جيش عظيم، فهُزِمَ الثائر أبو الفرج وأتباعه من كتامة، مما اضطره للفرار والاختفاء في جبل حصين، فقام غلامان من أنصاره بمتبعه وجلبه إلى أبي زعل، فسلمه بدوره للمنصور الذي قتله شر قتلة، ليتفرغ بعدها لشحن بلاد كتامة بالعمال والعساكر، والعودة للاستقرار بأشير¹. وقد انعكست نتائج هذا الصراع على سكان المنطقة بصورة سلبية، تمثلت في تراجع القوى العاملة، وحلول الأمراض، والفقر.

وبعد استقلال بني حماد عن الدولة الزيرية، تبعت سطيف القائد حماد بن بلكين، الذي اتخذ من مدينة القلعة عاصمة للدولة الحمادية الجديدة سنة 408 - 547 هـ الموافق لـ 1018 - 1152 م، والتي سبق وأن أسسها واستقر بها سنة 398 هـ - 1007 م بالقرب من جبل كناية، والمعروف اليوم بجبل المعاضيد، على بعد حوالي 36 كلم شمال شرق المسيلة²، وصارت من أعمال الحماديين، الذين امتد سلطانهم من قسنطينة شرقاً، إلى موضع يعرف بسيوسيرات بينه وبين بجاية حوالي تسع مراحل³.

وفي أواسط القرن الخامس الهجري - الحادي عشر ميلادي شهدت بلاد المغرب حدثين بارزين، كان لهما الأثر المباشر على منطقة سطيف، أولهما: الغزو الهلالي للبلاد في عهد المعز بن باديس⁴ سنة 443 هـ - 1051 م، وانتشار قبائله في كامل المنطقة. ولئن شهدت المدينة على إثر ذلك بعضاً من الانتعاش الاقتصادي والتجاري، بفعل استقرار بعض النازحين القيروانيين بها، إلا أنّ أرباضها ما لبثت أن امتلأت بعناصر بني هلال، وقد دُل من بقي فيها من كتامة، التي مُنع أفرادها من دخول المدينة لمزاولة التجارة ولقضاء حوائجهم الضرورية، إلا بتسديد رسوم مرتفعة، بلغت نسبتها عُشر ما يَرُد إليها من تجارة⁵، إلا أنّها لم ترتق إلى رتبة ولاية، كما هو الشأن مع قسنطينة وسوق حمزة وغيرها⁶.

أما الحدث الثاني فهو: انضمام القائد الحمادي الناصر بن علناس أمام العرب الهلالية في معركة سيبية سنة 457 هـ - 1064 م، الذي كان من تداعياته أنّ نزح سكان القلعة إلى المناطق المجاورة منها، وبخاصة سطيف لقربها، إذ لا تبعد عنها إلاّ بمرحلتين، وتُميّزها بأسواق كثيرة رخيصة الأسعار على ما ذكره البكري⁷، وهو ما زاد في أهميتها التجارية خلال هذه الفترة، حيث ارتبطت بعدة طرق تجارية، وبخاصة طريق القلعة المسيلة، الذي يتفرع إلى خمسة طرق، منها الطريق الذي يربطها بسطيف عبر برج الغدير⁸.

6 - سطيف الموحدية وتراجع المدّ الهلالي:

لما تمّ إلى عبد المؤمن بن علي خبر اضطراب أحوال إفريقية، وأن العرب الهلالية عاشوا فيها فساداً وجّه أنظاره صوب الشرق، وشرع في التحرك من مراكش نحو بجاية مستتراً مع خاصته ووزرائه، وكان من بينهم أبو إبراهيم وأبو حفص⁹، إذ لم يجد عناءً كبيراً في إسقاط دولة بني حماد، ولم يشعر أهل بجاية إلاّ والجيش الموحد على مشارف مدينتهم، دون أن يتمكن آخر ملوكهم يحيى بن عبد العزيز بن حماد

1- المصدر نفسه، ص 102.

2 - عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الثاني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر الطبعة السابعة، 1994، ص 254.

3- المراكشي، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 257.

4- تولى الإمارة الزيرية سنة 407 هـ الموافق لـ 1017 م، وعمره ثمان سنوات وأربعة أشهر، فكفلته أم ملال إلى أن بلغ سن الرشد، يعد ثالث أمراء الدولة الزيرية، اتخذ المهدي قاعدة الملكة، وهو أول من أعلن انفصال بلاد المغرب عن الخلافة الفاطمية، توفي بالمهديّة سنة 454 هـ - 1062 م، وقد دفن برياط المنستير. (هادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، ص ص 165 166).

5- موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص ص 151 152.

6- مختار حساني، سطيف خلال فترة الحكم الإسلامي، أعمال ملتقى سطيف آثار و حضارة، المتحف العمومي سطيف، أبريل 1997، ص 81.

7- البكري، المصدر السابق، ص 82.

8- رشيد بورويّة، الدولة الحمادية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977، ص 180.

9- المراكشي، المصدر السابق، القسم الخاص بالموحدين، ص ص 45 46.

مدافعتهم، حيث دخلت مقدمة جيش عبد المؤمن المدينة قبله بيومين من غير قتال¹، بمساعدة من أبي عبد الله بن ميمون المعروف بابن حمدون، الذي منح قبل ذلك العهد لعبد المؤمن بن علي، بأن يفتح له أبواب بجاية²، فتفرقت أمامهم جموع العسكر الحمادي برا وبحرا، في الوقت الذي تحصن فيه الأمير يحيى بن عبد العزيز بقلعة قسطنطينية، وهرب أخواه الحرث وعبد الله إلى صقلية، ودخل عبد المؤمن بجاية سنة 547هـ - 1152 م، وملك المدينة ابن العزيز بغير قتال، واستأمن الأخير عبد المؤمن في نفسه فقبل منه ذلك، لتصبح على إثرها منطقة سطيف تحت إدارة السلطة الموحدية³.

وعلى الرغم من استيلاء عبد المؤمن بن علي على العاصمة الحمادية، إلا أنّ رؤساء النواحي والأطراف من عرب بني هلال، ظلوا يرفضون الخضوع له والدخول في طاعته⁴، لكنهم بالمقابل قد أدركوا الخطر المحدق بهم، فاجتمعت كل القبائل العربية، وهم: بنو هلال، والأتبج، وعدي، ورياح، وزغب، وغيرهم ممن يوالونهم من أرض طرابلس شرقا إلى أقصى بلاد المغرب غربا، وقالوا: "إن جاورنا عبد المؤمن أجلانا من بلاد المغرب، وليس الرأي إلا اللقاء معه، وأخذ به بالجد، وإخراجه من البلاد قبل أن يتمكن". وتحالفوا على التعاون، وعزموا على لقائه بالرجال والأهل والمال⁵.

ووصل الخبر لصاحب صقلية رجار الفرنجي، فأرسل إلى أمراء العرب، وهم محرز بن زياد، وجبارة بن كامل، وحسن بن ثعلب، وعيسى بن حسن، ليحثهم على مجاهدة عبد المؤمن، وعرض عليهم أن يرسل إليهم خمسة آلاف فارس من الفرنج، يقاتلون معهم على أن يرسلوا إليه رهائن، لكنهم رفضوا عرضه، بحجة عدم رغبتهم في الاستعانة بغير المسلمين عليه⁶.

فسار جيش القبائل العربية في عدد كبير، وكان عبد المؤمن قد رحل من بجاية إلى بلاد المغرب، فلما بلغه خبرهم، جهز لهم جيشا من الموحدين، بقيادة عبد الله بن عمر الهنتاتي وسعد الله بن يحيى، قوامه ثلاثون ألف فارس، مع من تحالف معهم من العرب، وكان من بين قادتهم أبو سعيد يخلف، وعبد العزيز وعيسى أولاد أبي مغار⁷، وتقدم الجميع ابنه القائد عبد الله بن عبد المؤمن، فلما وصل إلى أرض سطيف، وقبل صدامه مع جيش قبائل بني هلال، عرج على قبر الكاهن الجاهلي المعروف سطيف بن ربيعة⁸، الموجود على ربوة فوق الطريق⁹، وقرب منه الخليفة، وقال للموحدين: ادفعوا خيلكم فدفع الخليفة جواده ودفع الموحدون معه، حتى وصل قبر سطيف وحك عليه عليه جواده الأبلق، ودار عليه الموحدون وانظم إليه الناس، فقال لهم الخليفة: أتعرفون ما قال صاحب هذا القبر؟ قالوا له: أنت العارف بذلك، فقال لهم الخليفة على لسانه: أزيلوا عني هذا القبر لئلا تدرسني خيل عبد المؤمن بن علي الكومي القيسي¹⁰.

1- ابن الأثير، المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 372.

2- المراكشي، المصدر السابق، القسم الخاص بالموحدين، ص 46.

3- ابن الأثير، المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 372.

4- عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 11.

5- ابن الأثير، المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 390. أيضا: النويري، المصدر السابق، الجزء 24، ص 168.

6- المصدر نفسه، ص 390. أيضا: المصدر نفسه، ص 168.

7- نفسه، المجلد التاسع، ص 390. أيضا: نفسه، ص 168.

8- حسب الأسطورة القديمة قبره موجود بأرض مدينة سطيف.

9- ابن قطان المراكشي، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، دار المغرب الإسلامي، ص 184. أيضا: مقال ليفي بروفينسال، دائرة

المعارف الإسلامية، المجلد الرابع، ص 189 190 أيضا: C, E, Bosworth et autres, Encyclopédie De l'islam, L'Union

(Académie Internationale, Tome IX, Leiden Brill, 1998, p p 87 88).

10- أبي بكر بن علي الصنهاجي، البيدق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971، ص 74.

فاستدرج الجيش الموحدى جيش القبائل العربية إلى أن وصلوا أرض سطيف بين الجبال، فكانت المعركة بين الطرفين بضواحي مدينة سطيف يوم أول صفر 548هـ، فانتشر الموحدون أولا بالجبال وأظهروا انهزامهم أمام العدو، حتى إذا ما تقدم إليهم انهلوا عليه¹، في معركة استمرت أربعة أيام، تركض فيها الخيول، وتقعقع فيها السيوف، وتسيل فيها الدماء، وتتناثر فيها الجثث والأشلاء،² وفي اليوم الرابع تراجع العرب الهلالية، وانجلت المعركة عن هزيمة وهروب لجيش القبائل العربية، فتركوا الأهل والأموال، والأنعام. فأخذ الموحدون جميع ذلك، وعادوا به إلى عبد المؤمن، الذي قسّم الأموال في عسكره، وترك النساء والأولاد، ووكل عليهم من يقوم بخدمتهم، ونقلهم معه إلى مراكش، فأنزلهم في مساكن فسيحة³.

فانقسم الجيش الموحدى يومئذ إلى فرقتين، فرقة اندفعت خلف المنهزمين فأدركتهم بتبسة فأسرّتهم وسلبت أموالهم، والفرقة الثانية حاصرت مدينة قسنطينة⁴، فاستسلم يومئذ يحيى بن العزيز، آخر ملوك دولة بني حماد، ونزل عن عرشه مبايعا الخليفة الموحدى عبد المؤمن المؤمن بن علي⁵.

وأمر عبد المؤمن من مراكش بمكاتبة قادة القبائل الهلالية، ليعلمهم أن نساءهم وأولادهم في أمان، وأمرهم أن يحضروا ليسلمهم إليهم، فلما وصل كتابه إليهم، سارعوا إلى المسير إلى مراكش، فأعطاهم عبد المؤمن نساءهم وأولادهم وأمن عليهم، ووصلهم بالأموال، فاسترقّ قلوبهم بذلك، وأقاموا عنده، واستعان بهم على ولاية العهد لابنه محمد بعده سنة 515هـ⁶، فكانت بذلك معركة سطيف أول هزيمة قاسية للقبائل الهلالية في بلاد المغرب الأوسط.

وبالرغم من هذه الأحداث الدموية، إلا أن سطيف ظلت محافظة على مكانتها المزدهرة، حيث وصفها صاحب كتاب الاستبصار في هذه المرحلة بقوله: "مدينة قديمة أزلية عليها سور ضخّم رخيصة الأسعار"⁷، وبذلك صارت منطقة سطيف بأكملها جزءا من الدولة الموحدية، التي عمّ سلطانها المغرب الأوسط، والذي كان حينئذ مقسم إلى ولايتين: شرقية: قاعدتها بجاية، وتمتد تقريبا حتى حدود جهة قسنطينة، والتي من ضمنها منطقة سطيف، وغربية: مركزها مدينة تلمسان، وتمتد من وادي ملوية غربا إلى نهر مينة شرقا، في الوقت الذي ألحق فيه الجنوب الشرقي للمغرب الأوسط بإفريقية⁸.

7- سطيف والولاء لسلطان بني حفص:

بعد استقلال أبو زكريا محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص بملك الحفصيين عن الدولة الموحدية عام 634 هـ - 1236 م⁹، وبسط ووسط سلطانه من طرابلس شرقا حتى بونة وقسنطينة والزاب وبجاية والجزائر غربا¹⁰، أصبحت سطيف خلال هذه الفترة تدين بالولاء

1- ابن الأثير، المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 390. أيضا: Charles Féraud, Histoire Des Villes De La Province De Sétif, Bordj Constantine Bou Arreridj, Msila, Boussaâda, Constantine, 1872, p 78.

2- البيهقي، المصدر السابق، ص 74.

3- ابن الأثير، المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 390. أيضا: النويري، المصدر السابق، الجزء 24، ص 168.

4- عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 11.

5- المرجع نفسه، ص 11.

6- ابن الأثير، المصدر السابق، المجلد التاسع، ص 390 391. أيضا: النويري، المصدر السابق، الجزء 24، ص 168.

7- مجهول، المصدر السابق، ص 166.

8- عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص 7.

9- أبو العباس أحمد بن محمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الطبعة الثالثة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 7.

10- جميلة مبطي المسعودي، المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، المملكة السعودية، 2000، ص 1.

للدولة الحفصية¹، وتبعت إداريا إقليم قسنطينة تحت إمارة قبيلة الدواودة، التي اتخذت من منطقة الزيبان منطلقا لها، إلا أنّ تعاظم مكانة بجاية خلال هذه الفترة، ودورها البارز في صد الهجمات المرينية والزيرية على أراضي بني حفص، قد شجع أمراءها على الاستقلال عن الأواخر في عدة مناسبات، وبحكم القرب الجغرافي لسطيف من مدينة بجاية، فقد تبعت إليها في فترات انفصالها واستقلالها عن العاصمة تونس.

كما كان لبروز مدينتي قسنطينة وبجاية وازدهارهما، الأثر السلبي على مكانة سطيف في الإستراتيجية الحفصية، إذ لم تجعل منها مركزا لإحدى ولاياتها أو أقاليمها الإدارية، لكنها بالمقابل حافظت على الصعيد التجاري على مكانتها كمعبر للقوافل التجارية ورحلات السفر، بفضل وقوعها ضمن مجموعة أربع أو خمس طرق أساسية، كانت تربط مراكز الصناعة والتجارة بالساحل البحري والصحراء، في الاتجاه الشمالي الجنوبي، منها الطريق التي ربطت بين بجاية وسطيف، والطريق التي ربطت القل بقسنطينة، واللذان تلتقيان مع بعضهما في نقاوس، ثم تمتد كطريق واحد إلى مدن بسكرة وتقرت وورقلة²، مما انعكس إيجابا على مردودية إنتاجها الفلاحي، خاصة منه إنتاج الحبوب والفواكه.

أما على الصعيد البشري فقد تراجع عدد سكانها بشكل كبير، قياسا بما تبقى قائما من عمرانها، حسب ما تُظهره نصوص بعض من كتبوا عن أحداث المنطقة في تلك الفترة، خاصة "بعد مجيء الأعراب الذين حطموا جزءا من أسوارها، ولم يبق منها سوى مائة دار مسكونة"³، وبالتالي فقد أصبحت مدينة بدون سور، لا تتمتع بالحصانة التي تجعلها ذات أهمية في إستراتيجية الدولة القائمة، وقد أكد هذه الحقيقة ياقوت الحموي، عندما وصفها بالمدينة الصغيرة في قوله: "بأنها مدينة صغيرة في جبال كتامة، إلا أنّها ذات مزارع وعشب"⁴، وعشب"⁴، وهي دلالة واضحة على انكماشها وتراجعها على كل الأصعدة.

وقد تميزت هذه الفترة باستقواء السلطة الحفصية بسلطة الأولياء الصالحين، وبرجال التصوف وشيوخ الزوايا، حيث سعت للتقرب منهم، والاعتراف بدورهم الاجتماعي والتربوي، فأنشأت معهم علاقة ثقة ومصالحة، تمثلت في سعي السلطة الحاكمة لحماية المؤسسات الدينية وصيانة أوقافها من كل معتد، في مقابل ذلك عملت الزوايا ومن ورائها شيوخها، على توفير الدعم الشرعي لحكم السلاطين، عبر خطبتها المؤثرة في الناس، بشكل يجعلهم ينقادون للحاكم بطوعية⁵.

ولقد جسدت هذه العلاقة الروحية بمنطقة سطيف زاوية قرية قجال، التي تُنسب لعائلة بن حمادوش⁶، ذات المكانة الروحية المؤثرة على سكان المنطقة، والتي أقيمت عمارتها على الطريق الرابط بين سطيف والأوراس، حيث تتمركز أقوى القبائل، كما تُعد إستراتيجية البوابة الرئيسية لإقليم الزاب، مما جعلها مزارا للعلماء وأبناء الجماعات القبلية، ومحل عناية واهتمام السلطة الحفصية، ممثلة في الأمير أبو يحيى زكريا (896هـ - 899هـ / 1490م - 1493م)، الذي خصصها بظهائر أميرية، تحمي أوقافها التي تعود إلى القرن الخامس

1- الغبريني، المصدر السابق، ص 7.

2- روبرت برتشيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، من نهاية القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ترجمة حمادي الساحلي، الجزء الثاني، دار المغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1988، ص 248.

3 - الحسن الوزان، المصدر السابق، ص 53.

4- ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص 220 .

5- عبد المالك بكاي، الحياة الريفية في المغرب الأوسط من القرن 07هـ - 10هـ ، 13م - 17م، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه العلوم في التاريخ الإسلامي، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2013 2014، ص 304.

6- تنسب الزاوية إلى سيدي مسعود الإدريسي، الذي يحتمل أن يكون قبره بضريح زاوية قجال، وهو الحفيد الثاني عشر في درية الحسن بن علي بن أبي طالب، ويرجع استقراره بقرية قجال إلى القرن 5 هـ، بعد رحلة قادته من فاس إلى قجال، حيث قام ببناء المسجد والزاوية. (سفيان لوصيف، زاوية بن حمادوش بقجال، تاريخ وعلماء، الخريطة التاريخية والأثرية لمنطقة سطيف، منشورات مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، 2011، ص 179).

المجري¹، وهذا حفاظا على سلطة الدولة الحفصية، التي أصبحت بحلول القرن 9هـ - 15 م يتهدها خطر المشيخات والإمارات المحلية، على غرار مشيختي الداودة وعامر، وإدراكه أن التقرب من شيوخ الزوايا كفيل بضمان استمرار نفوذ السلطة الحفصية بمنطقة سطيف².

كما كان مجال منطقة سطيف بنهاية الحكم الحفصي سنة 915هـ - 1509م، مسرحا لمعركة دامية دارت أطوارها بين الأمير الحفصي أبي فارس بن السلطان عبد العزيز، الذي نصب معسكره بقرية قجال³ غير بعيد عن مدينة سطيف، وعمه أبي بكر شقيق السلطان عبد العزيز، الذي تلقى المساندة من القبائل العربية الموجودة بالمنطقة ممثلة في قبائل: بني عياد، المسديد، وقسم دريد، حيث بادر جيش أبي بكر والقبائل العربية بمهاجمة محلّة أبي فارس، لكنه تمكن من الصمود ومقاومة الهجوم بشراسة، وأجبرهم على التراجع، وألحق بهم خسائر بشرية فادحة، قتل على إثرها محمد بن علي بن يعقوب، ليلتحق الأمير أبي فارس بعد انتصاره بوالده عبد العزيز بمدينة قسنطينة التي منحه فيما بعد ولايتها⁴.

وبتمكّن العثمانيين من بسط سيطرتهم على ربوع المغرب الأوسط، ابتداء من سنة 1519 م، وإنشائهم لبابلك الشرق وعاصمته مدينة قسنطينة، دخلت منطقة سطيف تحت لواء هذا البابلك، الذي كان يشمل الرقعة الجغرافية التي تمتد من البحر شمالا، إلى ما وراء بسكرة وواد سوف، في حوض ريغ و إغزر جنوبا، ومن مرسى الخرز بالحدود التونسية شرقا، إلى ما وراء إقليم ونوغة وبرج حمزة، وسفوح جبال جرجرة غربا⁵.

8- خاتمة:

نستنتج مما سبق التطرق إليه من مراحل وأحداث تاريخية، التي أوغلنا في بعض الأحيان في سرد أدق تفاصيلها، أن منطقة سطيف حتى وإن تغيرت وضعيتها مقارنة بالفترة الرومانية، فقد كانت من المناطق الأكثر تأثرا في صيرورة الأحداث التاريخية خلال مراحل الفترة الوسيطة، ونخص بالذكر هنا، مكانتها كدار هجرة الداعي، ونشر المذهب الإسماعيلي الشيعي خلال الفترة الفاطمية، ودورها البارز في حسم الصراع الهلالي الموحد، حيث كان لمعركة سطيف سنة 548هـ الأثر الفعال في هزيمة القبائل الهلالية، وبسط السيطرة الموحدية في بلاد المغرب الأوسط، وإن تراجع دورها السياسي في باقي الفترات الأخرى، إلا أنها قد احتفظت بثقلها الاقتصادي كسوق ومعبّر للقوافل التجارية، ومنتج رئيسي للمحاصيل الفلاحية، ولعل مرد ذلك بالدرجة الأولى، يعود إلى موقعها الاستراتيجي وخصوبة أراضيها وثروتها المائية الوفرة.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 - المقدسي (شمس الدين أبي عبد الله محمد)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، لندن، 1901.
- 2 - الإدريسي (أبو عبد الله محمد)، وصف إفريقيا الشمالية والصحراء، تصحيح هنري بيرس، الجزائر، 1957.
- 3 - البكري (أبي عبيد الله)، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

1- عبد المالك بكاي، المرجع السابق، ص ص 302 303.

2- المرجع نفسه، ص 304.

3 - المقصود بما قرية قجال، وليس Iguedjan أو G uedjan.

4- Charles Féraud, conquête de bougie par les espagnoles d'après un manuscrit arabe , article n 70, revue africaine , bulletin des travaux de la société historique algérienne ,année 1868, volume 1856- 1929. P 251. / 12

5- جميلة معاشي، الأسر الحاكمة في بابلك الشرق الجزائري، من القرن 10هـ - 13هـ / 16م - 19م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2015، ص ص 13 14 .

- 4 ابن الأثير (أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم عبد الواحد الشيباني)، الكامل في التاريخ، المجلد التاسع، مراجعة محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1987.
- 5 الوزان (الحسن بن محمد الفاسي)، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1983.
- 6 الحموي (شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الرومي)، معجم البلدان، المجلد الثالث، باب السين، دار صادر، بيروت، لبنان، 1977.
- 7 عيش (يوسف)، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لبلاد المغرب أثناء الاحتلال البيزنطي، أطروحة لنيل دكتوراه دولة في تاريخ وآثار المغرب القديم، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، 2006 - 2007.
- 8 بن واقد (أبو محمد عبد الله بن عمر)، فتوح إفريقيا، الجزء الأول، مطبعة المنار، تونس، د. ت.
- 9 لحبال (موسى)، المغرب الإسلامي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1981.
- 10 النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)، نهاية الأرب فنون الأدب، الجزء الرابع والعشرون، تحقيق عبد المجيد ترحيني، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- 11 ابن عداري (المراكشي)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الأول، تحقيق ج. س. كولان، ليفي بروفونسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1983.
- 12 مؤنس (حسن)، معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، الطبعة الرابعة، 2000.
- 13 القيرواني (الريفي)، تاريخ إفريقيا والمغرب، تقديم محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1994.
- 14 لحبال (موسى)، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس هجري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.
- 15 كبور (عمر)، خلف الله (شادية)، سطيف تاريخ و حضارة، موفم للنشر، الجزائر، 2007.
- 16 الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر)، الملل والنحل، ترجمة محمد السيد كيلاني، الجزء الأول، الطبعة الثانية، دار المعرفة، لبنان، 1995.
- 17 السلوسي (سليمان عبد الله)، أصول الإسماعيلية، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار الفضيلة، الرياض، السعودية، 2001.
- 18 المقرئ (تقي الدين)، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، الجزء الأول، الطبعة الثانية، القاهرة، 1996.
- 19 ابن خلدون (عبد الرحمن)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأعظم، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الجزء الأول.
- 20 مرمول (محمد الصالح)، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
- 21 مجاني (بوبة)، دراسات إسماعيلية، مطبوعات جامعة منتوري، مكتبة طريق العلم، قسنطينة، 2002 - 2003.
- 22 ابن أبي دينار (محمد بن أبي القاسم الزغبى القيرواني)، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، مطبعة الدولة التونسية، الطبعة الأولى، 1276.
- 23 مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق.

- 24- الجليلي (عبد الرحمان)، تاريخ الجزائر العام، الجزء الثاني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر الطبعة السابعة، 1994، ص254.
- 25- رشيد (بورويبة)، الدولة الحمادية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977.
- 26- المراكشي (ابن قطان)، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، دار المغرب الإسلامي.
- 27- أبي بكر بن علي (الصنهاجي)، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971.
- 28- البيدق (أبو العباس أحمد بن محمد الغبريني)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابع بونار، الطبعة الثالثة، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- 29- مبطي المسعودي (جميلة)، المظاهر الحضارية في عصر دولة بني حفص، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، المملكة السعودية، 2000.
- 30- روبر (برتشيك)، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، من نهاية القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ترجمة حمادي الساحلي، الجزء الثاني، دار المغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1988.
- 32- جميلة (معاشي)، الأسر الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري، من القرن 10هـ - 13هـ / 16م - 19م، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2015.
- 34- بن نية (رضا)، مجال كتامة الدعوة، مقارنة مواضيعية، إيكجان وأحوازا أنموذجا، مقال غير منشور، الملتقى الوطني سطيف تاريخ وحضارة، المتحف الوطني العمومي سطيف، جانفي 2012.
- 35- حساني(مختار)، سطيف خلال فترة الحكم الإسلامي، أعمال ملتقى سطيف آثار و حضارة، أبريل 1997، المتحف الوطني العمومي سطيف.
- 36- القاضي (النعمان)، كتاب افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، الطبعة الثانية، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.
- 37- لوصيف (سفيان)، زاوية بن حمادوش بقجال، تاريخ وعلماء، الخريطة التاريخية والأثرية لمنطقة سطيف، منشورات مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، 2011.
- 38- ليفي بروفينسال، دائرة المعارف الإسلامية، الجزء الرابع.
- 39- مجاني (بوبة)، المذهب الإسماعيلي والقيادات الدينية والعسكرية الكتامية في المرحلة المغربية، من قضايا التاريخ الفاطمي في دوره المغاربي، منشورات مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة، الجزائر، 2007.
- 40- منصور (خديجة)، مستوطنة سيتيفيس في الفترة الرومانية، النشأة والنمو الاقتصادي، مجلة العلوم الإنسانية، العدد 15، 2001، جامعة منتوري، قسنطينة.
- 41- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب)، البلدان، صححه محمد أمين بوضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- 33- ابن حوقل، المسالك والممالك، مطبعة بريل، 1872.
- 31- عبد المالك (بكاي)، الحياة الريفية في المغرب الأوسط من القرن 07هـ - 10هـ ، 13م - 17م، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه العلوم في التاريخ الإسلامي، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2013- 2014.
- 15- حطالي (محمد)، الدولة الأغلبية التاريخ السياسي، 148هـ - 296هـ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995.

المراجع باللغة الأجنبية:

- 1- camborieux Armand, Sétif et sa région, essai de monographie historique géologique et économique , les imprimeries gaballe , 1978.
- 2- Diehl Charles , Histoire De L'Afrique Byzantine , Domination Byzantine , 533- 709, L'académie Des Inscriptions et Bellusletikes, Editeur Ernest Leroux, Paris, 1896.
- 3- Duval Yvalle, La Maurétanie Sitifiennne a L'époque Byzantine, Revue Latomus, Tome 29.
- 4- Fentress Elizabeth, Mohamedi Anissa, et Autres, Fouilles de Sétif 1977- 1984, 5eme Supplément D'archéologie Algérienne , Agence National D'archéologie et de Protection des Sites et Monuments Historiques,1991.
- 5- Féraud Charles, conquête de bougie par les espagnoles d'après un manuscrit arabe , article N70, revue africaine , bulletin des travaux de la société historique algérienne ,année 1868, volume 1856- 1929.
- 6- Féraud Charles, Histoire Des Villes De La Province De Constantine , Sétif ,Bordj Bou Arreridj , Msila , Boussaâda, Constantine , 1872.
- 7- Février Paul Albert . Origines de L'habitat Urbain en Mauritanie Césarienne dans J . S . 1967 .
- 8- M'assiéra, note relative a des inscriptions de Sétif et des environs . bachs . 1947 .
- 9- Villard Maurice Bassard Yves, les haute plateaux sétifiens, leur histoire des temps immémoriaux a 1962 ,tome 2 , Sétif.